

الدكتور محمد رجب البيومي

البارودي بين التجديد والتقليد

بقلم الدكتور محمد رجب البيومي
عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

* * *

لا نريد ان نخص حياة البارودي بالشرح والتحليل فترجماته ذائعة مشتهرة في متناول الدارسين ولكننا نشير منها الى ما يدل على تكوينه الشعري وتأثيره الوجداني حيث ان الشاعر كان فاتحة نهضة مباركة في عالم الادب ودراسة وسائل نبوغه مما يعين على تصور جهده الادبي ويحدد اطاره الفني اكمل تحديد .

نشأ البارودي في اسرة ثرية مترفة ، ولئن مات والده وهو صغير فقد ترك له ثروة واقية وحسبا اصيلا فتح امامه المدارس الخاصة بأنجال العلية في عصره ، فدخل المدرسة الحربية التي أسست في عهد محمد علي وكان ذا يقظة متطلعة في نشأته فتفتحت عيناه على كل جديد وارهف سمعه لدراسة كل ما يلقى عليه وكأني به وقد ظن انه بعد تخرجه سيتدرج في مراتب الجيش مرتبة بعد مرتبة فيبلغ عن طريقه ما بلغه آباؤه وأجداده ، ولكن ظنه قد تبدد حين اوصدت المدرسة الحربية عند تولية عباس الاول فاضطر الناشىء المتطلع الى ان يلزم بيته على غيظ اليم .

كانت هذه العزلة المفاجئة نعمة على الادب العربي اذ رأى الشاعر ان يشغل اوقات فراغه في مطالعة كتب التاريخ وصفحات الادب فأكب على التاريخ الاسلامي يقرأ صفحاته ويدرس اعلامه ، وكان يميل بنوع خاص الى ذوي المجادة الحربية من امثال علي بن ابي طالب والمثنى بن حارثة وخالد وطارق ثم اتجه وجهة الدواوين الشعرية فعكف على روائع البحتري وأبي تمام والمتنبي والشريف ومهيار وأبي العلاء عكوفا دفعه الى الهيام بالجزالة البيانية والصياغة التعبيرية ، وكان في نفسه طرب للشعر وهيام بالموسيقى فأمدته هذه الروائع بما يرضي كلفه ويشبع هيامه ، ومن ثم فقد جعل الشعر القديم شغله الشاغل وهمه الدائم فاتسعت ميادين اطلاعه لتشمل تراث الجاهليين والامويين، وكان له طبع قوي فعمل على محاكاة ما يقرا واخذ ينظم ما يشبه قراءاته مقلدا محاكيا في ابتداءاته لذلك تجد كثيرا من قصائده قد كتبت تحت عنوان « وقال يروض الشعر » ومعنى هذا انه كان يشعر بطرب يدفعه للقول تقليدا او اتباعا دون ان يحدد هدفا خاصا لغرض معين ، بل يتبع سنن العرب في قصيدة تبدأ بالغزل وتمضي الى الفخر متحدثة عن اريحية ماجدة وهمامة كريمة وممتلئة بحوافل البيان من تشبيه رائع واستعارة منتقاة ، وما زال يرتاض القول حتى استقام له مذهب خاص ينحو منحى الجزالة البيانية في أرقى عصور العربية ، والهيام بمحاكاتها محاكاة لا يكون التقليد وحده باعثها دون شعور نفسي بمعانيها ، بل تكون مشاعره الصادقة دافعة الى القول في سياق جزل يحكي الديباجة العباسية ، فهي محاكاة الشاعر المطبوع ذي الاتجاه الهادف الذي يجد في نفسه ما يحتاج منه دون تصيد وافتعال .

هذا الاتجاه الى الادب العربي في ارقى عصوره واصفى منابعه قد جعل البارودي مجددا في عصره ، لان شعراء عهده كانوا أسرى البديع المتكلف والمحسنات الزائفة ، ولم تكن لديهم همم عالية تدفعهم الى السبق في مضمار الاصالة الواعية ، بل كان اكثرهم يفتعل النظم ارتصادا لجناس او تورية أو طباق ، وان جواده ليكبو به اذا امتد به حبل القول فينبهر انبهارا عاجزا ، وقد استمع البارودي لا محالة الى شعراء عصره او متشاعريه اذا أردنا الدقة الواعية فنفر منهم نفورا تراه في ابتعاده عن مذهبهم المنحدر واتجاهه الصريح الى زعماء الشعر في اخصب عصوره ، فهم اساتذته وموجهوه لذلك كانت رسالته التجديدية هي بعث الشعر العربي والقفز به الى عهود الفصاحة الرائعة وهي رسالة لها دورها الخطير في تقوية الاتجاه الشعري والنهوض به من كبواته المنحدرة ، وقد كانت محاكاة الشاعر لائمة البيان من هؤلاء موضع اجلال الدارسين من مؤرخي الادب العربي ، لانها ارتقاء بالشعر من مستوى

الى مستوى ، ولانها تعفية على عهد بائد واقدام على نهج طريف .

وقد داب بعض المؤرخين على عهد البارودي قديما في كل ما قاله اذ ان مهمته في تقديرهم هي النهوض البياني بالشعر والصعود بالقصائد الى مستوى الصياغة العباسية دون تجديد وراء ذلك ، وهذا ظلم من ناحيتين مختلفتين ، لان البارودي كما التزم بعض الاغراض القديمة لدوافع ذاتية صادقة تتجه وجهة هذه الاغراض اتجاها ينبع من صميم ميوله الشخصية فقد افتتح القول في اغراض جديدة اوحت بها طبيعة العصر ولغة الحياة ، وهو في الاغراض القديمة والجديدة معا ذو براعة مبتكرة تدل على شخصية نابضة تتاثر وتؤثر أبلغ ما يكون التاثر والتأثير ، هذا من ناحية ، اما الناحية الثانية فهي ان الصياغة التقليدية التي ارتضاها البارودي شكل قديم يحمل مضمونا جديدا في أكثر مراميه ، فاذا راض القول متأثرا بقصيدة للنابغة او المتنبي او البحتري او ابي نواس أو الشريف أو البوصيري ممن عارضهم الشاعر معارضة واضحة ينبىء عنها الوزن والقافية والمقدمة الغزلية فان وراء هذا الشكل الخارجي مضمونا جديدا يعبر عن احاسيس جديدة ليست انتهابا لخواطر سابقيه بل مباراة ادبية يسير فيها فارسان لكل اهدافه وقوته ووثبه وان اتحد الميدان الذي يتباريان فيه.

أجل لقد عارض البارودي فحول الشعراء من السابقين فظن بعض الكاتبين ان المعارضة نظم لا يخرج عن المحاكاة والتقليد وهو ظن تورط فيه الدكتور احمد زكي ابو شادي حين قال في الجزء الثاني من مجلة ادبي :

« ليس تعمد معارضة الشعر من الفن الصحيح في شيء ، بل هو محض صناعة والشعر عاطفة فكرية عميقة الجذور قبل كل شيء لا بهرج زائف سطحي ، وقد نقرا عن بعض الشعراء المتازين انه حاول محاكاة شاعر آخر بقصيدة معينة ، ولكن الحقيقة انه تأثر بموسيقاه او بموضوع القصيدة فأثار ذلك نفسه الشاعرة مثال ذلك معارضات البارودي للشعراء المتقدمين ومعارضة كيتس لسبنسر » .

وهذا الكلام متضارب ينقض بعضه بعضا ، لان الشاعر الذي يتأثر بموسيقى القصيدة غير الشاعر الذي يتأثر بموضوعها ، فالاول ذو تأثر شكلي لا يتجاوز السطح ولا يدفع من الخواطر ما يفسح له مجال القول ، اما الذي يتأثر بالموضوع فقد شارك الشاعر الاول احساسه اولا ثم زاد عليه باحساسات جديدة تولدت في اعماقه من تأملاته الخاصة للقصيدة ، وحينئذ يتسنى له ان يقول في معارضته كل جديد طريف ! ومن هنا كانت المعارضات الشعرية ذات وزن راجح لدى الدارسين ، وما دمنا في محيط البارودي فاننا نضرب المثل بما قاله عن هجرة الرسول ومقامه في غار ثور معارضا البوصيري في بردته الشهيرة اذ اتى في ذلك بما لم يأت به معارض من أمثال شوقي وعبد المطلب وغيرهما ولو كانت المعارضة مجرد تاثر شكلي لكانت المدائح النبوية التي اتجهت وجهة البوصيري نسخا متشابهة وهي كذلك عند بعض الناظمين ممن لم يرزقوا روعة الشعر وحيوية الفن وسطوع الخاطر ، بل حاولوا النظم مقلدين ، اما امثال البارودي وشوقي فقد صدروا عن طبع دافق وغزارة منهلة ولمح نفاذ واقرا ان شئت قول البارودي في حمامة الغار :

فما استقر به حتى تبوأه   من الحمائم زوج بارع الرنم
الفان ما جمع المقدار بينهما   الا لسر بصدر الغار منكتم
كلاهما ديدبان فوق مربأة   يرعى المسالك عن بعد ولم ينم
ان حن هذا غراما او دعا طربا   باسم الهديل اجابت تلك بالنغم
يخالها من يراها وهي نائمة   في وكرها كرة ملساء من ادم
ان رفرفت سكنت ظلا وان هبطت   روت غليل الصدى من حائر شبم
مرقومة الجيد من مسك وغالية   مخضوبة الساق والكفين بالعنم
كانما شرعت في قانىء سرب   من ادمعي ففدت محمرة القدم

وسجف العنكبوت الغار محتفيا   بخيمة حاكها من ابدع الخيم
قد شد اطرافها فأستحكمت ورست   بالارض لكنها قامت بلا دعم
كانها سابري حاكه لبق   بارض سابور في بحبوحة العجم

اقرا هذه الابيات ثم قل لي : هل كانت هذه الصور الرائعة مجرد محاكاة ؟ أم ان لكل معارض صولاته الظافرات ؟

فاذا تركنا المعارضات البارودية بعد أن عرفنا منزلتها من التجديد الذاتي ، فاننا نجد للبارودي في مضمار الابتكار الفني اغراضا لم يسبقه اليها سابق في عصره فقد تقدم شعراء النهضة الحديثة حين تحدث عن الآثار المصرية بقصيدته الرائعة :

سل الجيزة الفيحاء عن هرمي مصر   لعلك تدري غيب ما لم تكن تدري

وهو سبق غفل عنه من زعم ان شوقي اول من تحدث عن الآثار ، وقد فاخر الدكتور زكي مبارك في كتاب (الموازنة بين الشعراء) بأنه اكتشف ان اول من تحدث عن الاثار المصرية هو اسماعيل صبري في قصيدته التي مطلعها :

لا القوم قومي ولا الاعوان اعواني   اذا ونى يوم تمجيد العلا واني

وهاندا اقول له : ان البارودي هو الشاعر السباق ، فاذا تركنا شعر الآثار الى الشعر السياسي ، فاننا نجد البارودي رائد هذا المجال اذ كان اول من تحدث عن الحروب التركية الروسية بافاضة واشباع ، كما هاجم المحتلين من الانجليز هجوما كان اول صيحة سياسية في الشعر المعاصر ، واذا حفل الادب القديم بوصف المعارك الحربية الماضية ، فان وصف البارودي لحروب عصره كان جديدا بالنسبة لقراء الشعر من معاصريه ، فقد وصف جنود الاعداء وكلهم من همج البلغار واوازع الروس وعصب التتار وصفا ناطقا يقوم مقام الصورة المعبرة ويغني عن شريط سينمائي يعرض هؤلاء الذين يقول عنهم :

تجمعت البلغار والروم بينها   وزاحمها التاتار فهي حشود
اذا راطنوا بعضا سمعت لبعضهم   هديرا تكاد الارض منه تميد



قالوا كبرت ، فقلت لكن لم يزل ... قلبي على باب الشباب مسمرا
تمشي السنون اليه في احداثها ... فيردهن بصيحتين القهقرى
لا تعذروه في الهوى او فاعذروا ... من حب هان عليه ان لا يعذرا
هذا البياض بلمتي تسبيحة ... غراء ارفسها الى باري الورى
هيهات اجزع من ذبول ارومتي ... ما دا م لم يبرح فؤادي اخضرا

بوانس ايرس ـ الارجنتين ... زكي قنصل

قباح النواصي والوجوه كانهم ... لغير ابي هذا الانام جنود
سواسية ليسوا بنسل قبيلة ... فتعرف آباء لهم وجدود
لهم صور ليست وجوها وانما ... تناط اليها اعين وخدود
يخورون حولي كالعجول وبعضهم ... يهجن لحن القول حين يجيد

اما الناحية الاجتماعية فكان المظنون ان البارودي بنشأته المترفة وبعده عن شغب الدهماء وضجة الرعاع ينأى عن وصف ما يمثل هذا الشعب الارعن، ولكن الشاعر فنان دقيق يتيقظ لخوافي مجتمعه ويعرف مناحي الشذوذ في تكوينه فغالى بصيحات خلقية تدعو الى اعلاء النفس وارتفاع السلوك وتهيب بابناءالعروبة والاسلام ان يكونوا موضع الاريحية والبسالة فيستجيبوا لداعي الكرم ويلبوا هواتف المجد والعزة والفتوة ، وكل ما قاله في هذا المنحى الرفيع جديد يحمل طابع الطرافة ويفتح الطريق لتلاميذه التالين ، ومن اطرف ملاحظاته الاجتماعية حديثه عن جارة مزعجة ذات اولاد لا يسأمون الضجيج في منتصف الليل، بل يهيجون هيجات يفزع لها الناس من رقادهم وتتألب لها طوائف الحيوانات حتى يصير الشارع معركة ذات عجيج وصيال وذلك تلخيص تائه لما عناه الشاعر الكبير حين قال :

الى الله اشكو طول ليلي جارة ... تبيت الى وقت الصباح باعوال
لها صبية لا بارك الله فيهمو ... قباح النواصي لا ينمن على حال
صوارخ لا يهدان الا مع الضحى ... من الشر في بيت من الخير ممحال
كانهم مما تنازعن اكلب ... طرقن على حين المساء برئبال
فهجن جميعا هيجة فزعت لها ... كلاب القرى ما بين سهل واجبال
فلم يبق من كلب عقور وكلبة ... من الحي الا جاء بالعم والخال
وفزعت الانعام والخيل فانبرت ... تجاوب بعضا في رغاء وتصهال
فقامت رجال الحي تحسب انها ... اصيبت بجيش ذي غوارب ذيال
فمن حامل رمحا ومن قابض عصا ... ومن فزع يتلو الكتاب باهلال
ومن صبية ريعت هناك ونسوة ... هوائم دون الباب يهتفن بالوالي

فهذه قطعة قوية من الشعر الاجتماعي الدقيق الذي يصف تجربة ذاتية أرقت الشاعر واخفته فأوحت له برائق التصوير وجيد التعبير وبهذه الطرائف وامثالها برز البارودي مجدداً في الموضوع والصياغة ، ولولا انه تعرض في الثلثالاخير من حياته لبلاء النفي وشقاء المرض وقسوة الحرمان ثم بالرمد القاضي على نوره الهادي لراينا شعره الآسر يقفز قفزات متوالية تتجاوز طور التمهيد الى ما بعده من أطوار النمو والازدهار مما تحقق كثير منه على أيدي تلاميذه التالين .

والغزل فن شعري اذ لا يكاد يخلو شاعر من عاطفة تدفعه الى الافتنان فيه تنفيسا عما يحس ، وقد قال البارودي ما نعزوه دائما الى التقليد والمحاكاة ناسين ان فروقا شتى بين مطالع ومطالع، فاذا كان الكثيرون يبتدئون القصائد بالغزل فلن يكونوا جميعا ممن يتبعون سننا يرتضيه الناس ، بل ان فيهم من وجد السانحة تتسع للتعبير عن خوالجه فتم له ان يعبر عن ذاته في اصالة واضحة ! وليت شعري ما سر هذا الضرام الذي تتوقد به بعض مطالع الشريف الرضي ان لم يكن اوارا ينبىء عن مكنون الجمرطي الصدر ، وكذلك نجد في كثير من مطالع البارودي دون ان ننكر ما نلحظه في بعضها الاخر من محاكاة اضطر اليها الشاعر المبتدىء اذ لا مفر من التقليد لشاعر يعتبر مدرس نفسه وتلميذ ما يقرأ دون ان يهتدي بأستاذ يراوحه ويغاويه ، على ان في الديوان مقطوعات طريفة استقلت بالغرض العاطفي دون ان تزحمها اغراض اخرى وهي لا شك وليدة تجربة حقيقية أحسها الشاعر حين قال :

قالت وقد سمعت شعري فاعجبها ... اني اخاف على هذا الغلام ابي
اراه يهتف باسمي غير مكترث ... ولو كني لم يدع للظن من سبب
فكيف اصنع ان ذاعت مقالته ... ما بين قومي وهم من سادة العرب
فنازعتها فتاة من صواحبها ... قولا يؤلف بين الماء واللهب
قالت دعيه يصوغ القول في جمل ... من الهوى فهو آيات من الادب
وما عليك وفي الاسماء مشترك ... ان قال في الشعر يا ليلى ولم يعب
وحسبه منك داء لو تضمنه ... قلب الحمامة ما غنت على العزب
فاستأنست ثم قالت وهي باسمة ... ان كان ما قلت حقا فهو في تعب
يا حسنه من حديث شف باطنه ... عن رقة البستني حلة الطرب

ولهذه المقطوعة نظائر اخرى نأمل ان تجد من يخصها بالتحليل الادبي منقبا عن معدنها الصحيح .

المنصورة ـ مصر ... محمد رجب البيومي



وديع فلسطين

حديث مستطرد عن سلامة موسى

بقلم وديع فلسطين

* * *

تنثال على الذهن ذكريات سلامه موسى منذ ما عرفته للمرة الاولى وانا طالب جامعي والى ان تبادلنا العناق على فراش مرضه الاخير في المستشفى القبطي ، وسرت وراء نعشه بعيد ذلك .

عشرون سنة او نحوها تواصل الود بيننا فيها حتى انمحت فوارق السن ، وتلاقت خيوط الفكر ، وان ذهب كل منا مذهبه في الحياة ، هو بنضاله الفكري العنيف العنيد ، وانا بما ركب في طبعي من اعتدال اغراني غير مرة على الانسحاب من دنيا الفكر كاحتجاج صامت على ما لا يقع مني موقع هوى في هذه الدنيا الفكرية المائجة الصاخبة .

وكنت في سذاجة الشباب الاولى أتعثر في خطوي واكتشف طريقي في الجماعة حين طرقت باب بيت سلامة موسى . وكان اسمه يملأ الدنيا فيبهر العينين ويلقي في روع الناس انه هو وسائر اهل الشهرة من كبار المفكرين والكتاب ، اشخاص اسطوريون فوق البشر . وكان الوهم يورثني اعتقادا بأن سلامة موسى واشباهه من ذوي الاسماء الضخام يعيشون في ترف الخز والديباج والخدم والحشم ، وتصطف على مداخل قصورهم ارتال السيارات الفارهة ، ولكن ، ما اسرع ما تبخر هذا الوهم حين الفيت سلامة موسى يقيم في حارة ميخائيل جاد في حي الفجالة الشعبي المتواضع ــ وهو حي المكتبات الى هذا اليوم ــ وازددت تعثرا وتلعثما عندما فتح الباب بعد ان دققته ، فلم يخرج لي خادم كخدم هارون الرشيد ، بل أطل علي رجل يرتدي جلبابا ابيض ، وجهه كثير التجاعيد وشعره الناحل شديد البياض وقال للطارق : انا سلامة موسى . اما بيته ، فلم ار فيه من مظاهر الترف الا اكداسا من الكتب والورق تسد المنافذ ، واما القصور المنيفة فهي اوهام ، واما ارتال السيارات فقد استبدل بها سلامة موسى مركبة الترام ، يمتطيها في الدرجة الثانية المتواضعة ! وهكذا تبددت من ذهني الشاب اسطورة الرجل الذي هو فوق البشر ، واكتشفت ــ وما افجع ما اكتشفت ــ ان سلامة موسى بشر سوي مثلنا .

ولم تكن لزيارتي تلك من غاية الا استرداد لوحة زنكوغرافية للفتاة الجامعية المثالية كان سلامة موسى قد استعارها من مجلتنا الجامعية لكتابة فصل عن فتاة الجامعة التي تجمع بين العلم والحسن واكتمال الشخصية والخلق . فتسلمت اللوحة وانصرفت وانا اداري خجلي الفاجع وتلعثمي واضطرابي ، بينما كان سلامة موسى يحاول استبقائي عنده بعبارات ترحيبية رقيقة .

وبعيد تخرجي من الجامعة ، عملت في الصحافة ــ وهي ميدان تخصصي الاول وربما الاخير ايضا ــ فاشتغلت في « الاهرام » اولا ، ثم تركته الى « المقطم » ومجلته العظيمة « المقتطف » ، وكنت الى جانب ذلك اترجم احاديث اسبوعية لتذاع من محطة القاهرة ، وكان يقرأها احمد رشدي صالح (الذي انتقل الى رحمة ربه يوم ١٢ يوليو ١٩٨٠ في لندن) .

وذات يوم ، ذهبت لتسليم الحديث الاسبوعي ، فناداني شخص باسمي ، ولم البث ان تبينت فيه سلامة موسى ، وعرفت انه كان مكلفا مراجعة ترجماتي للاطمئنان الى سلامتها من ناحية والى صلاحيتها في الآذان من ناحية اخرى . وخاطبني قائلا : أيتسع وقت للجلوس معي دقائق ؟ وادهشتني المفاجأة ، لان المعهود في كبار الكتاب ان ينتظروا من الناس السعي اليهم ، اما هم ، فلا يسعون الى احد ، ولا سيما اذا كان « الاحد » شابا طريرا ليس له وزن في اي معيار فكري . ولكن سلامة موسى كان قد حرر نفسه من عقدة التعاظم ــ ولا اقول الاستعلاء اجتنابا للملابسات السيكولوجية للفظة ــ ووجد في الشباب حقله الواسع ، يزرعه بآرائه المخصبة ، ويحقنه بآرائه الولود ، ويضع فيه الخمائر التي لا تلبث ان تخمر

العجين العقلي كله . وكان سلامة موسى قد اطلع على بعض ترجماتي وراجعها ، فوجد فيها بواعث للرضا ، وهو من ثم حريص على ان يمحضني نصائحه وتوجيهاته بعد ان يستكشف ما يجهله من امري . وطبعا ، اتسع وقتي لمجالسة سلامة موسى ، وكنت كلما عرجت لتسليم الحديث الاسبوعي استاذنته في قضاء بعض الوقت معه استزادة من توجيهاته وملاحظاته ، وانتفاعا بتعليقاته ، ونشدانا لتشجيعه . فقد كان سلامة موسى مربيا قبل ان يكون اي شيء آخر . ولا غروى ، فسيرته الذاتية التي دونها اسماها « تربية سلامة موسى » تاكيدا لمناهجه التربوي ، كما ان كتابه التثقيفي الكبير سماه « التثقيف الذاتي او كيف نربي انفسنا » ايمانا منه بضرورة التربية في الحياة . ولا بد للمربي من ان يحتضن الشبيبة ويرعاها ويواصلها بالتهذيب والتثقيف ، حتى يتمم رسالته التربوية على خير وجه .

وتباعدت لقاءاتي بسلامة موسى بعد انقطاعي عن كتابة الاحاديث الاسبوعية ، حتى فوجئت ذات يوم من فبراير (شباط) ١٩٤٨ بسلامة موسى يزورني في مكتبي بالمطم وفي يمناه كتابه الجديد « تربية سلامة موسى » قدمه الي بعبارات سخية ، ثم ودعني على وعد بلقاء جديد . ولم يلبث ان عاود الزيارة عندما قرا تعليقي على كتابه النفيس ليشكر لي صنيعا توهمه .

ومع انني لا احب ان اعقد مقارنات بين الناس ، فان تصرف سلامة موسى معي جعلني اكبر صنيعه واعلي قدره في ميدان الاخلاق على سواه من كبار الادباء . فقد كنت في ذلك الحين ابادر باقتناء ما يصدر من كتب لكبار الكتاب أطالعها ثم ادون خواطري عنها في الصحف ، واوافي كل كاتب بما انشره حول كتابه ، فلا اتلقى من احد منهم ، الا قلة معدودة ، حتى كلمة شكر . اما سلامة موسى ، فهو يسعى الي بنفسه ، ويقدم الي كتابه بيده ، ثم يعاود زيارتي لشكري . حقا ، انه لطراز فريد في الشخصية وفي الخلق ، وهو طراز تفسره خير تفسير رسالته التربوية الاصيلة . فالمربي الجليل لا يعيش في عزلة الابراج ، سواء اكانت من عاج ام من زجاج ، وانما يعيش بين الناس وفي خضمهم . وهل تستقيم رسالة في التربية ما لم يسع صاحب الرسالة الى متلقيها ، وما لم يدأب في المحاضرة والمحاورة والمناقشة والمجادلة في جو من الود والعاطفة النبيلة والروح الابوية الحانية ؟ هذا طراز في المربين العظام عرفت منه الدكتور محمد مظهر سعيد والدكتور امير بقطر ، عليهما شآبيب الرحمة .

وتكررت زيارات سلامة موسى لي كلما ظهر له كتاب جديد ، او كلما قرا لي شيئا في الثناء بالخير على مؤلفاته .

وزارني مرة وفي صحبته الشاعرة العراقية الشابة نازك الملائكة وكانت اما ذاهبة الى الولايات المتحدة للدراسة هناك او عائدة لتوها بعدما انهت دراستها ، فالذاكرة خؤون وقال لي وهو يقدم نازك لي ولرواد ندوة « المقتطف » التي كنا نعقدها كل يوم جمعة ، « ان هذه الفتاة مرجوة الغد ولا بد ان تصبح في الحياة الادبية والشعرية شيئا كبيرا . ومن هنا حرصت على تعريفها باصدقائي من حملة الاقلام وانت من جملتهم » ، وعرفت بعد ذلك انه صحب «نازك» الى ادباء آخرين ليزكيها لديهم .

وفي الوقت الذي احتفى فيه سلامة موسى بنازك الملائكة في مصر ، احتفى به كذلك الدكتور احمد زكي ابو شادي في امريكا على ما حدثني في رسائله يوم التقى بها هناك .

وزارني سلامة موسى مرة اخرى ليقدم الي طبعة جديدة من معجم الياس انطون الياس مهداة من المؤلف ولم اكن اعرفه . فسألت سلامة : ومن دل هذا المعجمي الرائد علي ؟ فكان جوابه انه جاري ، ومطبعته قريبة من بيتي ، وهو ناشر لكثير من كتبي . وقد جاءت سيرتك في احاديثنا فرغب في اهدائك معجمه . فلما التقيت بالياس انطون الياس في ندوة المجاهد العربي الاكبر محمد علي الطاهر ، كانت تزكية سلامة موسى قد سبقتني اليه ، فانعقدت بيننا صلات المودة حتى انتقل الى رحاب الخلود.

وظل سلامة موسى يواليني بالزيارة ، ناسيا انه يكبرني بخمسة وثلاثين عاما ، وان جميع الاعتبارات كانت تقضي بان اكون انا الساعي اليه لا المسعي الي . ولكن سلامة موسى لم يكن يحفل بهذه الشكليات . بهذا قضت استاذيته ، وفي سبيل التواصل الفكري لا مجال لتقاليد الا تقاليد الديمقراطية الانسانية الصافية .

وكنت من الذين بطش بهم في عام ١٩٥٢ فآثرت التزام الدار ، وكففت عن غشيان المجتمعات ، وتخطتني المناسبات المختلفة ، ونسيني او تناساني حتى الذين يسر الله لي ان أكون عونا لهم في الحياة ، واحسست ان الدنيا جميعا استدبرتني بعدما كان مكتبي يعج بالزائرين، وهاتفي لا يكف عن الدق . وفي غمرة هذا النسيان ، هبطت علي رسالة ، وكأنها رسالة سماوية ، وكان مرسلها هو سلامة موسى الذي افتقدني هنا وهناك ، وخشي ان يكون مكروه قد الم بي ، ومن هنا رغب ان يستوضحني اخباري ويبثني اشواقه ويرجوني الاتصال به ان اعوزني شيء . وجاءتني منه بعد ذلك رسالة ثانية فثالثة ، وأيقنت ان سلامة موسى قمة في الانسانية ، وانه امثولة اولى في الخلق .

وكان طبيعيا ان استجيب لدعوته ، فأحاضر في ندوته الاسبوعية في جمعية الشبان المسيحية ، وما اكثر ما دعا الشباب والمجربين على حد سواء للتحدث الى جمهوره المرهف الآذان ، ولئن عرفت كثيراً من المنابر في غابر يومي، فان تجربتي بين جمهور سلامة موسى بانصاته وحيويته وصبره على طول النقاش ، هي تجربة مميزة ، فقد عود

سلامة موسى جمهوره على ان تكون له مشاركة فعلية في اي حديث يخوض فيه ، ودرب عقوله على الاستقبال والارسال ، وفتح صدوره على تقبل المقارعات الفكرية بسماحة وسعة أفق ، ومن هنا كان جمهور سلامة موسى يتعلق به تعلق المشدوه ، ولا يفارق مجلسه الا والساعة تقرب من منتصف الليل ، بل ان جمهوره كان يرافقه بعد الندوة الى منزله في اغلب الاحيان ائتناسا بحديثه في الطريق وتلذذا بآرائه ، واستطالة للمحاورات معه .

وقد ترددت على ندوة سلامة موسى محاضرا ومستمعا ، فانطبعت في ذهني عن هذا الرجل العظيم حقيقتان هما : اولا ــ انه كان هداما بانيا ، اي انه لايهدم بناء خربا متداعيا الا ليقيم في مكانه بناء شامخا . وما اكثر ما رفع معاول الهدم في وجه كل فكرة بالية ، ولكن ما اسرع ما كان يجيء بالفكرة البانية اعتقادا منه بان المصلح الاجتماعي هو الرجل الذي لا يكتفي بالسلبية ، بل ينبغي ان يقرن سلبيته بايجابية مباشرة تحمل الى الناس خيرا ملموسا . واما الحقيقة الثانية فهي انه كان يطاوع علماء النفس في تحليل الشخصية الى عناصرها ومكوناتها، ولكنه كان يردف التحليل بالتركيب والتأليف طلبا للشخصية الناجعة . ومن هنا كان ينادي بالتكامل بين التحليل اي التفكيك والتجزئة وبين التراكيب اي التكوين والانشاء والتأليف ، لان مبتغاه هو ان تكون للناس شخصيات سوية . وكتابه « الشخصية الناجعة » يمثل منهاجه الفكري في تكوين الرجل السوي والمرأة الناضجة .

ويزدهيني ان اقول ان سلامة موسى كان يتابع كتاباتي هنا وهناك ، بل لقد فاجأني غير مرة بالتعليق على ما اكتب ، استطرادا مع سليقته في تشجيع الشباب .

ومن اسباب فخري انني هوجمت مرتين بسبب سلامة موسى ، مرة في مجلة « الرسالة » لاحمد حسن الزيات وكان المهاجم « صديقي » انور المعداوي لانه لم يرض عن فصل لي نشرته في « المقتطف » عن سلامة موسى باعتباره « دعامة قوية من دعائم الفكر العربي » ومرة ثانية هاجمني « صديقي » حبيب الزحلاوي في كتابه « شيوخ الادب الحديث » لانني رثيت سلامة موسى في مجلة « المجلة » التي كانت تصدر في الخمسينات . وقد عرفت ان المعداوي ندم على حملته على سلامة موسى بعدما ازداد تبصرا بالقيم الفكرية ، واما الزحلاوي فقد ظل يضمر سوءا لسلامة موسى الى ان نقم عليه ابناؤه وجردوه من راسماله في تجارة الحديد فهاجر الى استراليا ومنها الى كولمبيا حيث مات في غربة قاتلة .

وكنت الاحظ ان سلامة موسى يكتب في مجلات صغرى ، مع ان كتاباته خليقة بكبريات الصحف ، وقد سألته مرة : لم تضيع وقتك في الكتابة الى هذه المجلات، وعندك صحف المرتبة الاولى ، وهي لن تضيق بكتاباتك ؟

وكان جواب سلامة موسى : « انني رجل ذو رسالة ، رسالتي تقتضيني ان اقف على المنابر مهما تواضع حظها من العلو . وما هذه المجلات الصغيرة الا منابر لي ، ارتقيها لاخاطب الناس ، ما دامت آرائي كالخمائر ، فهي لا بد ذائعة بين الناس ، وان حسبها البعض دفينة في مجلات ثانوية الشأن » .

وسألت سلامة موسى مرة : لم لم تنتخب عضوا في مجمع اللغة العربية ، مع انك من انجح واضعي المصطلحات السائغة في اللغة العربية ؟ فكان جوابه ان المجمع يدور في حلقة مفرغة من « الاحافير اللغوية » ، وهو لا يريد مصطلحات سائغة تجري على الالسنة ، ولهذا لن تجد لي موضعا في المجمع ، لا انا ولا فؤاد صروف ولا من هم على شاكلتنا من الذين جعلوا العلم شعبيا مبسطا ، ولم يجعلوه مستغلق الاكاديمية .

والواقع ان جميع الكتب العلمية التي اخرجها سلامة موسى تتميز بهذا الاسلوب السهل الموجز ــ وكان يسميه بالتلغرافي ــ الذي تتوضح معانيه من القراءة الاولى ، ولا ترتطم حاسة الفهم بأي عقبة في استيعابه . وقد عالج نظرية التطور ، وطرق ابواب علم النفس ، وتحدث عن المذاهب الفلسفية ، وتناول الاتجاهات الاقتصادية، وكتب في علوم الاحياء وفي تاريخ الفنون ، فكان باسلوبه الميسر مخاطبا لرجل الشارع ولرجل العلم على حد سواء ، ناهيك عن انه كان يتابع سير العلوم اولا بأول ، وما من كشف علمي جديد الا سبق سلامة موسى الى التعريف به وشرحه بأبسط عبارة . ويومياته التي كان ينشرها كل يوم احد في جريدة « الاخبار » والتي يتعين جمعها في كتاب باشراف ابنه وناشر كتبه الدكتور رؤوف سلامة موسى ، هي سجل حي للاحداث العلمية والاجتماعية التي كان ينفعل لها وبها في حياته اليومية فيعلق عليها تعليقا بصيرا كاشفا .

واذا كان النحاة يقولون بلسان واحدهم : « اموت وفي نفسي شيء من حتى » ، اي ان اجله يحين دون ان تمهله الايام للاحاطة بأوجه الاعراب المختلفة للفظة «حتى» فان سلامة موسى ــ في ما يشبه المعارضة لاقوال النحاة ــ يقول : « اموت وفي نفسي شيء من الطاقة الذرية » ، وهو يعني ان شطر نواة الذرة قد احدث من الآثار العلمية الحاضرة والمستقبلة ما كان يتمنى ان يحيط به في حياته فان استعصى عليه ذلك لان العمر مرهون بأجل مكتوب، فسيموت وفي نفسه حسرة على فوات احاطته بهذه الطاقة .

وعلى غرار هذا القول ، تمنى سلامة موسى ان يموت كالجاحظ وعلى صدره كتاب . ولئن كانت كتب الجاحظ قتلته عندما انهدمت على ام رأسه ، فان سلامة موسى قد كان يتمنى الا يفارقه الكتاب الى آخر لحظة من عمره ، وهي امنية تحققت ، لانني عندما زرته في مستشفاه في فراش

مرضه الاخير ، الفيت الكتب متراصة الى جواره كما انه اخذ يستوضحني أخبار الدنيا التي انقطع عنها بسبب جراحته ، حرصا منه على ان يعيش ملء حياته .

فسلامة موسى وقف حياته على العلم ، يطلبه منذ ما نال شهادته الابتدائية عام ١٩٠٣ ـ وهي الشهادة الرسمية الوحيدة التي ظفر بها ـ والى ان ودع الدنيا بعد ذلك بخمسة وخمسين عاما ، متمنيا ان يحطم المئة من السنين، فحطم منها سبعين سنة فقط .

وعندما بلغ الستين من عمره ، فوجىء باعتقاله والقائه في السجن هو ومحمد زكي عبد القادر والدكتور محمد مندور وفتحي الرملي وطائفة اخرى من رجال الصحافة ، وانهمهم الذين الزموهم النوم على اسفلت السجن انهم متهمون بالقاء قنبلة على دار سينما مترو ! وقد اوفد سلامة موسى ابنه نبيل الي لينبئني باعتقاله ويستنجد بي في الدفاع عنه في الصحافة . ولما تعذر علي بسبب الرقابة ان اكتب ولو سطرين عن القائه في السجن، كتبت حملة شديدة في مجلة « الدبور » اللبنانية التي كنت اراسلها في ذلك الحين ، وقد اخبرني صاحبها الراحل ميشال مكرزل ان هذه الحملة احدثت اثرها المطلوب في مصر كما اخبره في ذلك الحين ممثل مصر الدبلوماسي في بيروت . ولما تبين اولو الامر سخافة هذا الاتهام ، افرجوا عن سلامة موسى وصحبه . وقد سألت سلامة موسى عن شعوره يومذاك ، فقال في سخرية قاتلة : اما الاتهام فصحيح ، لان كل كتاباتي هي بمثابة الرؤوس المدمرة لكل فساد وعفن وجهل وقلة عقل . فنحن نحارب بالقلم لا بلعلعات الرصاص . واما رجال الضبط والتحري ، فما اغباهم ، لقد اقتحموا بيتي في الفجر فوجدوه مملوءا بالكتب ، فانتقوا كل كتاب احمر الغلاف بما في ذلك معجم الياس انطون الياس وصادروها لما تنطوي عليه من خطورة قصوى !

وقد تعرض سلامة موسى في حياته وبعد موته لكثير من الهجوم الظالم ، ورجل مثله كان يتعامل يوميا مع الافكار الجديدة ، لا يسلم من امثال هذه الحملات . وكنت في هذا اتحدث مع العلامة الامير مصطفى الشهابي رئيس مجمع اللغة العربية في دمشق ، فقال الامير الشهابي ان سلامة موسى من اعظم الذين بسطوا العلوم ويسروها في اللغة العربية ، كما انه من اجرا المصلحين الذين عرفتهم ديارنا العربية . واذا كان قد تعرض لتطاول المتطاولين فلانه كان في اسلوبه متحرشا خشنا موجعا ، وكان هذا التحرش يمس هذه الفئة او تلك فيثيرها . ولو اجتنب هذا التحرش ، لتقبله الناس برضاء كامل كما تقبلوا ابناء عصره من المصلحين .

واقول استطرادا انه عند صدور الطبعة الثانية من معجم الالفاظ الزراعية للامير الشهابي العظيم ، طلب الي ان انوب عنه في تقديم نسخة منه لسلامة موسى، اعتزازا بشخصه وبرأيه . وقد سره بعد ذلك ان سلامة كتب تعليقا وجيزا مركزا عن معجمه في يومياته في « الاخبار » .

والواقع أن سلامة موسى كان سريع الافتتان بكل ما هو جديد ، ولكنه كان يراجع نفسه في الحين بعد الحين ، متخليا عن آراء تحمس للذياد عنها في زمن ثم زايلته حماسته بعد تقليب الراي وانعام النظر . والادلة على هذا كثيرة ، وان عدها البعض دليلا على تقلبه او تناقضه . وفي هذا كان يحدثني قائلا : ان حب العلم هو في المقام الاول حب للصدق ، فاذا تبينت أن رايا قلت به اصبح زائفا او معيبا عدلت عنه حتى ولو رماني الناس بالتقلب . ولكنك ستجد ان جوهر حياتي كلها هو حب العلم خالصا لوجه العلم ولمنفعة البشرية في بلادي وغير بلادي .

كنت في جنازة سلامة موسى اجلس بجوار صديق العمر الشيخ محمود أبي ريه ، تلميذ مصطفى صادق الرافعي وحافظ سره وناشر رسائله . فلما مر النعش من امامنا ، بكينا كلانا حسرة على فقد هذا العالم العظيم ، وقلت لابي ريه : اتبكي سلامة موسى وهو الذي اشبعه مصطفى صادق الرافعي تجريحا ؟ فكان رده : اني ابكي سلامة موسى برغم هذا . فكل صاحب فكر حقيق بالاجلال اما الخطأ والصواب في الفكر فنسبيان ، لان الايام كثيرا ما برهنت على ان الخطأ صواب والصواب خطأ . وسلامة موسى بالمعيار الانساني والمعيار العلمي رجل عظيم يبكى عليه مني ومنك ومن كل محب للعلم والضاد .

وهناك مع الأسف محاولات يراد منها اعادة اماتة سلامة موسى ، وهي محاولات مكتوب عليها الموت ، لان الذين خلدوا بأعمالهم النافعات يزدادون خلودا كلما تبصرنا في حياتهم وعرفنا مقدار ما عانوه في الريادة وتمهيد الطرق من عناء وبرحاء .

وقد نشر رجاء النقاش في مجلة « الدوحة » القطرية الصادرة بتاريخ ديسمبر ١٩٧٩ م مقالا ظالما عن سلامة موسى بسبب صدور كتاب منسوب اليه بعد وفاته عنوانه « الصحافة حرفة ورسالة » فيه فصول مطولة عن محررات صحفيات مبتدئات وأماديح رخيصة للقائمين على احدى المؤسسات الصحفية . ورجاء النقاش يعتقد أن سلامة موسى ألف هذا الكتاب بعد وفاته هدم به افكاره وآراءه التي ظل ينادي بها طيلة حياته ! ولم يهتم حتى بتصديق البيان الذي اعلنته اسرة سلامة موسى نافية فيه صدور هذا الكتاب بمحتواه المذكور عن سلامة موسى ، مع ان النقاش اشار في مقاله الى معرفته بهذا البيان .

والذي لا يعرفه النقاش ان اسرة سلامة موسى طالبت الدار الناشرة بتقديم اصول الكتاب فعجزت عن ذلك . واستنجد بي الدكتور رؤوف سلامة موسى، واستطعنا بمراجعة اوراق المؤلف وفصوله القديمة المنشورة ان نعيد اصدار هذا الكتاب بنفس العنوان في عام



وتسأل آلة سوداء ، عندي	اراك برئت من بوح نفيث
الست رسولة الاحباب ؟ هبني	وجيع السر في الجرح الرثيث
فقلت لئن تناهى ، بعد ، صوت	وهز السلك بالهمس الخبيث
اجيبي حلوة اللفتات : اني	اخب الخطو في الدرب الوعوث
مدى عينيك كانت اغنياتي	ترش الطيب في الروض الاثيث
فلما لم يعد حب قديم	لديك يليق بالحب الحديث
ارحتك من حديثي ، كل يوم	وكان هدوء عمرك في حديثي
دفنتك في دفاتري القدامى	فما لك ، بعد ، عندي من مكوث
ولما مت ، مات طموح عمر	امض الكون بالسعي الحثيث
فليس لدي عندك من رسول	وليس لديك عندي من بعيث
هوى عهد تساقيناه صفوا	رعاه الله من عهد نكيث
بأيدينا محونا ما كتبنا	فليس لما كتبنا من مغيث
احبي من ترين ، فلن تعيثي	فسادا في شموخي ، لن تعيثي
لقد اصبحت ، بعدي ، بعض ارث	مرير الطعم ، في شوق الوريث

فوزي عطوي

١٩٦٣ في طبعة صادرة عن دار « سلامة موسى للنشر والتوزيع » ووضعنا في صدرها بيانا مطبوعا على ورق احمر جاء فيه ان الطبعة السابقة ملغاة وان هذه الطبعة هي الاولى والمعتمدة للكتاب .

ومع ذلك ، فان النقاش ما زال يعتقد ان سلامة موسى الف هذا الكتاب بعد موته ليهدم به ماضيه !

واقول استطرادا ايضا انني تعاونت مع الدكتور رؤوف سلامة موسى في اخراج طائفة من كتب والده المخطوطة والمنشورة بعد مراجعتها كلمة كلمة ، لا سيما وان بعض الكتب تعرض لحذف اعتسافي في طبعاته الاولى ، فأعدنا الكتاب الى نصه قبل الحذف .

وما زلت اذكر نصيحة غالية اسداها الي سلامة موسى وانا ما زلت في ريق العمر واول الطريق ، قال : اجعل مطامحك في السماء ، ولكن اثبت بقدميك على الارض واستشرف الدنيا من عل فتتصاغر امامك ترهاتها . كن كبيرا بعقلك وقلبك ، وارض ضميرك ، فكأنك ملكت الدنيا جميعا .

ولقد حاولت في هذا الحديث المستطرد ان اصور شخصية سلامة موسى (١) التي عاصرتها وعرفتها وكنت قريبا منها وما زلت أعيش في أوج سيرتها المعطرة . ولك في وصف هذه الشخصية ان تقول عنها ان اصحابها هو المفكر ، او قل هو المؤرخ ، او ان شئت فقل هو الداعية ، او ان شئت فقل هو المربي ، او ان شئت فقل هو المؤرخ ، او قل هو الفيلسوف العالم . وان شئت ان تجمل هذا كله في خلاصة الخلاصة ، فقل هو انسان محب للعلم لنفسه ولغيره في قرية هي الدنيا بأسرها وفي مجتمع هو الانسانية برمتها .

(١) ولد سلامة موسى في الزقازيق سنة ١٨٨٧ وادركته الوفاة في القاهرة في الخامس من اغسطس ١٩٥٨ .

القاهرة — وديع فلسطين

عيون الورد

بقلم الياس خليل زخريا

* * *

انفاس البيت

- الى « كاتيا » الكبرى ... صولجان العقل في انوثة التمرد وعمق الانطلاق (١٢-١٢-١٩٥٢)
- الى « منال » قوس قزح في قنطرة الجلد (٨-٢-١٩٥٥) .
- الى « لينا » الصغرى عصارة الذهب في بوتقة الحنان واليقظة (١-٨-١٩٥٩) .
- الى « منتهى » عطية العطايا في مدينة المعرفة .

.. يبتدع الانسان في مراحل ذاته ، ذاته ، ابتداعا عجيبا ..

.. يخلقها بيديه في قشابة الجدة خلقا قشيبا ، جديدا ..

يبتدىء .. من حيث يعتقد بانه قد اكتمل في منطلق البلوغ ، والتصدي اكتمالا ..

يولد ولادة اليسر في ولادة العسر ...

كان مخاض الليل ، ومخاض النهار في جوارح الابوة والامومة ، حكاية من حكايات الامس على العقد المعقدة ، المنسية في حواشي الايام المتوارية ..

★

اواه ، اواه ،

.. كيف يمتلىء هذا الفراغ الواسع في كل عرق من عروق النفس ، وحاسة من حواس الجسد ؟

.. في كل مطمح من مطامح المواجهة على انفة الكبرياء ؟

.. كيف يرتوي هذا الجشع الدائم ،المتربص في اعماق التمني المختلج في اسرار الاغواء والاغراء ، والاثرة القديمة المتواصلة في رواسب الطين وكينونة التواجد ،

ودنيا اذا ما تعبت من دورانها ، من خسوفها وكسوفها ، تفجرت في فضائلها ، من نفسها في منجزات نفسها ، الافق التي تنطوي فيها الافق ، والمجرة الهادئة العالية التي تستقر فيها دقائق الامال ، وهوامش الظنون ، ونزوات الانسجة الساحرة .

وتغيب صورة البارحة في حدقة الحاضر ، ومباسطه، وخزائن كنوزه ، وهذه الالوان الحديثة الزاهية ، التي تغمر كل شيء حتى عقارب الميناء ، ومواقيت التحسب ، ومواعيد الرؤى ، ومساقط الافلاك .

لقد ظل يحلم .. ويتكابر في احلامه ، ويكتمل بشبابه في تلك المثل المثلة ، على حقائق حياته ، ونظره الممتد ، وخياله المتجرد ، وفكره المتطاول المتصاول ..

لقد ظل يتوهم ان هدفه الغائب هو الهدف ..

.. وان محجته الانية هي المحجة ..

.. وأن نموه المتجسد في طبيعة الارادة واصالة المعرفة هو النمو .

لقد استمر على الزهو ، وصلف الادعاء وحب الذات،

.. يدفع الصدر بصلابة الصدر
والراي بخشونة الرأي ،
والالم الاليم بال ... واللذة ،
والضجر بالحرف ، والكلمة ، وبهرجة العقل ،
وظلمة الليل بسواد الدرب
وضيق الامل بضيق التمرد ،
وخوف الردع بنكران الواقع وجموح التغلب ،

.. وشهوات شهوات لا تطفىء الشوق ، ولا تخمد النهم المتاجج في اغراض الحياة واشيائها المتحجرة او النابضة ..

.. يخزن المعرفة ، وصور المعرفة ، هنا .. وهناك

.. في مخازن قلبه ، في لحمه .. ودمه .. وذاكرته .

كما يخزن الجبل الماء في أغوار كهوفه ، حتى اذا ما تفتحت به الروافد والجداول أحس احساسه الغامض المبهم ، الذي يتدانى فيه السحاب ، وتكبح الريح، وتتمهل الفصول ، ويجري الزمن في حنو الارض ، ورقه الانعتاق، وغلبة السلاسل والقيود ، وقدسية القناعة والاكتفاء .

لقد قهرته بلاهة الغرور فأقامته في سدرة الحياة اقامة التصنم ، والتشخيص وضلال الاعتزال في ضلال التبصر .

.. وحدَث الحدثُ المتأصل
ووقع الواقع المُربد ..

.. ونداه الدم ، الصارخ في غريزة الغرائز ، على طهارة الجسد ، وسمو الانبعاث ، وجود التفاني ، وثَمر الخليقة ، وسرمدية الإرث الحي في ملكوت النعمة .

وانتقل في ليلة القدر في ليلة التسابيح انتقاله ..
وتحول جسده قرباناً ابدياً في جسده ..

وخفق فيه .. في فراغه الواسع .. زمن واسع ..
..وامتلأ كيانه ، كل كيانه ..
بذار تمتلىء في براعم الثمر وبراعم الفصول
اغراس تغرس في التربة المعتقة ..
هو الورق ، والساق ، والجذع ، والاماليد ،
.. وجناح الطير على جناح الضوء ،
.. ومؤمن يصلي فينفتح في شفتيه باب البركة
.. وباب الانعتاق
وابواب التلاقي في قدس التضحية وفروسية العطاء
وانعتقت من فراغ قناعتهِ ، قناعتُه
وتحررت من اوهام خواطره خواطره ،
وصفت في انسانية شعوره انسانيته
وصار السحاب المتلبد ، وردا ًوماء
وخصبا ًعلى رواء

.. ولد الاب ولادة الاشراق والتجلي في ولده ..
.. وابتدعت الام في حشاشتها كينونة الارض في كينونة السماء
تنفست في ملامس الطين انفاس العمر ..
.. انفاس البيت .
ويا بني
ها ، هما ، شقيقتاك، تلعبان معنا على مساند الديوان بحروف المعرفة ، وآنية المحبة .
ها، هي دراجتك ، تدور بعجلاتها القرمزية ، دوران عيني ، بؤبؤ عيني ، في جدائل شعرك وشعرهن ..
ها هي امك ، تحبك بإبرتها الخالقة ، خيوط عمري على ستائر السرائر ، ومفاتيح الطمأنينة ، وحدود الابتداء.

ها هي اختك ، اختك الكبرى، تحمل صولجان العقل في مهرجان العودة .
ها هي اختك ، اختك الصغرى تلـف بأناقتها ، وعنجهيتها الرضية على طرف اصبعها سلسلة المفاتيح والتمائم ، في الطريق الى حديقة القطاف ..
ها هو البيت ، ينطلق بنا انطلاقة في ترابه ، وزواياه ، ومواسمه الدائمة ..
ها هو ابوك ، يولد ولادته في كل يوم ..
.. ويحيا حياته في كل شيء ..
.. ويمتلىء امتلاءه في كل فراغ .
.. ويهمس همسه في كل لفظ .
.. ويرتعش ارتعاشه في كل حركة
.. ويعيش عيشه في كل انتظار
.. ويقلق قلقه في كل نداء
لقد صهرته امك ، في ذاتها ، انصهارا سويا
لقد علمته امك ..
كيف ينحت في نفسه نحتة
ويتعبد في ايمانه تعبده

ويصحو في دنيا صحوه
ويبتدىء في حدود النهاية
وينتهي في خواتم البداية ،
انظر
.. انظر يا بني
كيف صار ذلك المتشرد يعدد في الهدوء والسكينة، والتفاني ، حبات سبحته على انفاس أنفاسك ، وهمسات همسات اختك ، واختك ..
ويا بني
كل بركة تنهار عند بركة امك وابيك
كل كبرياء تنهار عند كبرياء امك وابيك
بورك فيك ، وفي اختك ، واختك ،
مولد امك ، ومولد ابيك ...
والامومة بداية ولادة ..
والابوة بداية عبادة ..
وان ارث الارث في الولادة والعبادة ،
دنيا في خلية دنيا ، وبناء مقدس في مرتفع بناء ،
ويا بني
اقرا على اختك ، واختك ، حكايات ابيك وحكايات امك
.. والحياة ، يا بني ، حرف يمتلىء في حرف
.. وحكاية تنتهي في حكاية ،
وولد يقرا قصة عمره في مرآة امه وابيه .

(مقدمة كتاب «عيون الورد»)

الياس خليل زخريا

!

حول "تطور النقد العربي الحديث في مصر"

بقلم الدكتور عبد العزيز قلقيلة

* * *

صدر اخيرا عن هيئة الكتاب كتاب « تطور النقد العربي الحديث في مصر » تأليف الدكتور عبد العزيز الدسوقي فقراته بل استوعبته وانما اغراني به ما اعرفه عن مؤلفه الفاضل من جدية في البحث واخلاص للدرس ومن عمق الفهم وروعة العرض ، وما الظن بكتاب يقول استاذنا الكبير الدكتور مهدي علام في مقدمته :

« كان من حظي ان اقرا هذا الكتاب مرتين ، وسأكون سعيدا حين اعود الى قراءته واستشارته مرة اخرى ، فمثل هذا الكتاب لا يقرا مرة واحدة ثم يترك جانبا ، بل يظل مرجعا يعود اليه القارىء في نقط متعددة في ميدان النقد الادبي » .

ولا ينتظر القارىء مني تلخيص ذلك السفر الضخم ، فهو يقع في خمسمائة صفحة اولا ولا يغني تلخيصه عن قراءته ثانيا ، ومع هذا فلا بأس من ان نعطي هذه الملامح له .

تحت عنوان (مقدمة ونهج) يحدد المؤلف مكان وزمان البحث .

اما المكان فهو مصر ، وقد قصره عليها ليسهل عليه استيعاب المادة وتعميقها . واما الزمان فهو ــ على حد قوله ــ « منذ اواخر القرن التاسع عشر حتى مشارف الحرب العالمية الثانية او قبلها بقليل » .

هكذا بدون تحديد صارم ، فالتحديد الصارم غير ممكن في الدراسات الادبية ، لانها تبدأ جنينية ثم تأخذ بعض الوقت لكي تتبلور وتظهر .

ويبقى موضوعه وهو تتبع السمات والخصائص والمميزات لحركة النقد العربي الحديث ورصد التحولات الفكرية والجمالية التي صاحبت تلك الحركة وتحديد تسمياتها وتأصيلها والتنظير لها وربطها بالتيارات الفكرية والادبية التي أثرت في سيرها وحددت ملامحها الفنية .

وقد وزع المؤلف موضوع الكتاب على اربعة ابواب هي :

الباب الاول : عن حركة البعث وهو ستة فصول :

١ ــ حركة البعث .

٢ ــ ملامح حركة البعث .

٣ ــ محمد سعيد وكتابه « ارتياد السعر في انتقاد الشعر » .

٤ ــ احمد فارس الشدياق .

٥ ــ محمد عبده .

٦ ــ حسين المرصفي ، وقد اقتصر المؤلف في التعريف بنقده على كتابه « الوسيلة الادبية » ولم يرجع الى كتابه الآخر « دليل المسترشد في الانشاء » وهو مخطوط في ثلاثة اجزاء .

الباب الثاني حركة التجديد :

ولم يعجبني ان يكون التمهيد له فصله الاول ، فالتمهيد ــ كما كان استاذنا المرحوم احمد الشايب يعلمنا ــ دهليز ندلف منه الى ما في الباب او الفصل من حقائق علمية ، وهذا هو المعقول ، فمن الممكن ان يكون البيت بلا دهليز ، لكن من غير الممكن في السلوك العلمي ان نعد الدهليز فصلا ، والا كنا كمن يسمي مدخل شقته حجرة او صالة ويعدها وحدة سكنية يحاسب عليها .

اما الفصل الثاني فقد تضمن عددا من القضايا التي أثارتها حركة التجديد كقضية تطوير الانواع الادبية ، وقضية التمحيص العلمي للنصوص وتحقيقها ، وقضية موسيقى الشعر وفي الفصل الثالث عالج المؤلف بدايات التقنين النظري والتطبيقي بتتبعه بعض الافكار الجديدة والنظرات المتقدمة من خلال اصحابها :

يعقوب صروف وقسطاسي الحمصي وابراهيم اليازجي وابراهيم المويلحي ونجيب الحداد ومصطفى الرافعي وسليم الخوري واحمد الصراف ويوسف الخازن ولطفي السيد ومصطفى المدرس وخليل ثابت واسعد داغر وحسن السفطي وادوار مرقص .. ونصل في الباب الثاني الى الفصل الرابع منه ، وقد تكلم فيه عن تجديد الدراسة الادبية في الكتب الاتية :

١ ــ تاريخ آداب اللغة العربية لمحمد دياب .

٢ ــ تاريخ آداب اللغة العربية لحسن العدل .

٣ منهل الوراد في علم الانتقاد لقسطاسي الحمصي .

ومن البابين الاول والثاني ــ وقد عالج حركتي البعث والتجديد ــ عرفنا ان الانجازات التي تمت في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين ــ من خلال هاتين الحركتين كانت الاساس الحقيقي لبعث النقد الادبي وتجديده .

فقد احيت حركة البعث المقاييس النقدية القديمة وحررت الدراسة الادبية من قيود الحواشي ، واثارت الكثير من القضايا الهامة .

وتولدت حركة التجديد من حركة البعث ، او قل : انها حلت محلها ، فغيرت كثيرا مما كان قبلها ، وخلقت مناخا جديدا هضم كل دعوات التجديد .

وقد ساعد على ذلك اخلاص نقاد حركة التجديد في تلمس اسس علمية ومقاييس موضوعية لعملية النقد الادبي مستعينين على ذلك بثقافتهم الغربية .

وكانت النتيجة ان النقد الادبي لم يعد يقتصر على تذوق النصوص الادبية ، والتصحيحات اللغوية والنحوية وانما صار كشفا وتفسيرا وتحليلا وموازنة ، وربما احكاما معللة .

ولم يعد النقاد يقفون عند الشعر فحسب ، بل تناولوا فنونا جديدة بدأت تظهر في الحياة الادبية كالقصة والرواية والمسرحية والمقالة الادبية ، وعالجوا موضوعات جديدة لم تكن تتردد من قبل في الدراسات النقدية كالصدق الفني والخيال والوهم والجمال والجلال والايقاع الشعري والوحدة العضوية والانتحال والاصالة والمعاصرة .

الباب الثالث : تيارات النقد العربي الحديث :

وقد رصد منها المؤلف :

ــ التيار البياني ، ووقف من رواده عند : مصطفى لطفي المنفلوطي ومحمد توفيق البكري .

ــ التياران المدرسي والتاريخي : ومن روادهما : العدلوحمزة فتح الله والاسكندري وسيد المرصفي وجرجي زيدان ومصطفى صادق الرافعي .

ــ تيار التجديد : ومن رواده : طه حسين ومصطفى عبد الرازق وهيكل .

ــ تيار الثورة : ورواده هم شكري والعقاد والمازني .

ولنا على هذا التقسيم ملاحظتان :

الاولى : انه افرد كل تيار بفصل ما عدا التيارين المدرسي والتاريخي ، فقد ادمجهما في فصل واحد ، وترتب على ذلك ان جاء هذا الباب في اربعة فصول لا خمسة ، وكان يحسن الفصل بين التيار المدرسي والتيار التاريخي، فلكل منهما منهجه وخصائصه الفنية ولو ان نقطة انطلاقهما واحدة ، على شاكلة جعل التيار التجديدي منفصلا عن التيار الثوري ، فنقطة انطلاقهما كذلك واحدة ، والمؤلف نفسه غير بعيد عن ذلك ، فهو يقول بعد شرحهما :

« والحق انهما تيار واحد » ص ٢٣٦ .

والملاحظة الثانية : ان نمو حركة البعث في الباب الاول وتطورها الى حركة تجديد في الباب الثاني ، كان قمينا بتحولها كلها الى تيار تجديد في الباب الثالث ، اما وقد توزع هذا التجديد على التيار البياني والتيارالمدرسي والتيار التاريخي والتيار الثوري ، فلم يكن ثمة داع لان يأخذ الجزء اسم الكل فيما عنونه المؤلف بتيار التجديد ، ولربما كان من الافضل ــ لاستقامة المنهج واستوائه ــ اما توزيع ما جاء به على التيارات الاخرى، واما تسميته باسم آخر .

الباب الرابع : اتجاهات النقد العربي الحديث :

وهي خمسة موزعة على خمسة فصول بواقع فصل لكل اتجاه :

الفصل الاول في بيان الاتجاه التاريخي .

الفصل الثاني في بيان الاتجاه النفسي .

الفصل الثالث : في بيان الاتجاه الموضوعي .

الفصل الرابع : في بيان الاتجاه الجمالي .

الفصل الخامس في بيان الاتجاه الاجتماعي .

وفي خاتمة هذا الباب التي هي في الوقت نفسهخاتمة الكتاب يقول المؤلف : «ولا شكان المنابع الثقافية والروحية لرواد هذه الاتجاهات هي نفس المنابع التي اسهمت في تطوير حركة النقد الادبي فحولته من (حركة بعث) الى (حركة تجديد) الى (تيارات) ثم الى (اتجاهات) » .

ولقد لاحظت ــ عبر هذه الرحلة الطويلة ــ ان كل تجديد طرا على نقدنا الحديث في هذه الفترة من الزمان التي حددتها موضوعا للبحث ، بدأت بذورا قوية في كيان حركة البعث وحركة التجديد منذ اواخر القرن التاسع عشر .

ولقد تردد عبر هاتين الحركتين كل افكار التجديد التي نادى بها فيما بعد رواد التيارات ورواد الاتجاهات .

وفي رأيي ان هذه العبارة تدمغ الكتاب بالاسهاب ، وتدينه بالمط والتطويل فقد كان من الممكن الاقتصار فيه على بابيه الاول والثاني ، وهما البابان اللذان عالج المؤلف فيهما حركة البعث وحركة التجديد ، ولا غرابة في ذلك ، فقد تردد عبرهما « كل افكار التجديد التي نادى بها فيما بعد رواد التيارات ورواد الاتجاهات » كما قال المؤلف بالنص .

سيقول الدكتور الدسوقي : ان النقد بعد هاتين الحركتين او من خلالهما قد اخذ شكلا آخر او اشكالا اخرى .

واقول له : فليكن وسعها يا اخي وعمقها ، اما ان تحولها الى تيارات ثم تطور التيارات الى اتجاهات ، فهذا تزيد وتكثر ، وفضول ببعض فصول . ودليل آخر على صحة ما ارتأيته هو قول المؤلف نفسه :

« نقرر ان الآراء والافكار التي رددها رواد هذا التيار (تيار التجديد) كانت معروفة منذ اواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين ، وكانت تتردد في الصحف والمجلات على لسان ابراهيم اليازجي والمويلحي والمنفلوطي والبكري والحداد ونقولا فياض ويعقوبصروف وغيرهم من رواد حركتي البعث والتجديد ، حتى المنابع الثقافية والفكرية ، يبدو انهم اشتركوا في ورودها والنهل منها » .

ثم ما معنى ان التيارات قد استحالت الى اتجاهات؟!

في تصوري ان اي تيار لا بد ان يكون له اتجـاه ، فتطور التيار الى اتجاه ، وجعل الاتجاه مرحلة منفصلة عن مرحلة التيار وآتية بعده ، هذا ونحوه ضرب من التكلف يخالف طبائع الاشياء ، وكان افضل من ذلك تعميق التيار وضبطه ، اما ايراده هكذا فتعسف لا يدفعه ولا يشفع له ما ذكره المؤلف تحت عنوان :

فروق وخصائص

وربما قيل : ان التيار التلقائي ، والاتجاه مقصود .

وادفع بأن هذا تجريد بل امعان في التجريد ، والا فكل من التيار والاتجاه في هذه الدراسة مقصود ومقصود جـدا .

واذا كانت المآخذ السابقة منهجية اي مآخذ تتصل بتصميم الكتاب ورسم خطته ، فان المآخذ اللاحقة ستكون موضوعية تتصل بالتنفيذ والتطبيق .

وللامانة العلمية اقول : ان هذه المآخذ بشقيهـا من باب :

حسنات الابرار سيئات المقربين ، فما يتسامح فيه مع غير الدكتور الدسوقي ، لا يتسامح فيه معه ، « لانـه عودنا الكمال او ما يشبه الكمال في كل ما صدر ويصدر عنه من اعمال .

واختلاف الراي لا يفسد للود قضية يا دكتور عبد العزيز .

يقول المؤلف تحت عنوان (منهج البحث) :

« ولقد كان منهجي في تلك الدراسة هو المنهـج الجمالي حيث عنيت بتتبع القيم الفنيـة والجمالية التي صاحبت تطور النقد العربي ، ولكنني استعنت ايضـا بالمنهج التاريخي خلال فترة تربو على نصـف قرن وهي الفترة التي حددتها زمانا للبحث » .

هذا الكلام من المؤلف افاد انه اقتصر على المنهجيـن الجمالي والتاريخي ، وهذا اعجب العجب ، فهو لا ينقد حتى يكون حرا في سلوك المنهج الذي يرتضيه في النقد ، ومناهج النقد كثيرة منها الجمالي ومنها التاريخي ومنهـا النفسي ومنها التأثيري ومنها الكلاسيكي ومنها الموضوعي ومنها الحكمي ومنها التفسيري ومنها ومنها .

نقول : هو لا ينقد حتى يكون حرا في سلوك منهج معين يختاره وينقد من خلاله وبمقتضاه ، وانما هو مؤرخ لنقد الادبي وراصد لتطوره في مرحلة زمنية معينـــة ، والامانة العلمية تمنعه من الاقتصار على مـا كان في ذلك النقد من فنية وجمالية وتحتم عليه التعريف بكل ما هناك وهنالك من نقد مهما كان منهجه او مذهبه .

ونحمد الله على ان المؤلف لم يلتزم بما قاله مـــن الوقوف تحت راية المنهج الجمالي وحـــده ، والا جاءت دراسته مبتورة .

ويبقى انه بما قاله قد ظلم نفسه وبحثه .

وعن استعانته بالمنهج التاريخي الى جانب المنهـج الجمالي ، فانه لا اختيار له في ذلك ، لانه لا مندوحة له عنه وهو يتتبع النقد الادبي في مرحلة زمنية لها اول ولها آخر وفيها تطور وتدفق .

يورد المؤلف كثيرا من القضايا النقدية التي اثارهـا محمد سعيد في كتابه (ارتياد الشعر في انتقاد الشعر) .

ومن ذلك قضية الوحدة الفنية في العمل الادبي .

وقد تطوع الدكتور الدسوقي ففسرهـا « بالتلاؤم والتناسب بين الالفاظ والمعاني حتى تتحقق الوحدة العضوية للعمل الفني » .

والوحدة العضوية ولو انه لا يضادها ولا ينقضهـا هذا التلاؤم والتناسب الا انها تتحقق بهما بل باجتمـاع امرين هما :

وحدة الموضوعية ووحدة الجو النفسي .

ولقد صارت الوحدة العضوية بهـذا المعنى المزدوج احدى البديهيات في الدراسات النقدية الحديثة ، لكن يظهر انها لم تتضح بعد في ذهن الدكتور الدسـوقي على كثرة لهجه بها وذكره لها ، والا فهل نراها او نلمح شيئا مـــن سماتها في هذا الكلام له ؟! قال :

حتى ما اطلقوا عليه (الوحدة العضوية في القصيدة) اشار اليه الشدياق في تعليقاته على الشعر في ايامه ، يقول: فأما الشعر في عصرنا فانه عبارة عن وصف ممدوح بالكرم والشجاعة او وصف امراة بكون خصرها نحيـلا وردفها ثقيلا وطرفها كحيلا ، ومن تعمد قصيدة جعـل ابياتها غزلا ونسيبا وعتابا وشكوى ، وترك الباقي للمدح» ان هذا الكلام للشدياق لا يعطي مفهـــوم الوحـدة العضوية ولا تشتم منه رائحتها .

واذن فالدكتور الدسوقي يحمل فوق ما يحتمـل ، ويجعله موضوعا لمحمول لا يناسبه .

على انه ـ شكر الله له ـ قد اصاب كبد الحقيقة بقوله المنصـف :

« لقد شغل الشدياق بالابحاث اللغوية والنحوية عن التعمق في القضايا الفنية ، فجاءت نظراته النقدية بـوارق ينساق اليها بفطرته » .

يقول المؤلف : « وللشدياق نظرات نقدية تتجلى فيها شاعريته » .

واشهد انني لم اسمع من قبل بالنظريات النقديـة التي تتجلى فيها الشاعرية ، وانني بعد ان سمعتها أفهمها.

ومن يدري ، فقد يكون المؤلف قد قصد بها النقـد المنحاز الى صنعة الشعر ، ولو ان النقد ـ اغلب النقد ـ لا يرى الا منحازا الى صنعة الشعر . او لعله قصد بـه (النقد النفسي) .

ومن عيوب هذا النقد انه ـ الى جانب تركزه حول الشاعر دون الاثر الفني ـ يغالي في تقدير العوامل النفسية

في الشعر ويبالغ في اخضاع الاثر الادبي للفروض الاكلينيكية، وهي فروض تكرر نفسها لانحصارها في امور بعينها .

وقد صدق استانلي هايمان حين قال: ــ ان ارنست جونز استطاع ان يؤدي عملا جليلا حين وجد عقدة اوديب كامنة في مسرحية هامات ، ولكنه لو ذهب يحلل (الملك لير) او (حلم منتصف ليلة صيف) او مقطوعات شكسبير ، لوجد ـ وربما ادهشه ذلك ـ انها جميعا تعكس عقدة اوديب عند شكسبير ، ولقام حقا ـ ان سلمنا له بنظرياته ـ بالكشف نفسه في اي أثر فني آخر . (مقالات في النقد الادبي للدكتور هدارة ص ٢٦) .

عقد المؤلف فصلا بعنوان (محمد عبده وحركة البعث في النقد والدراسة الادبية) .

وقد جاء في ثلاث ورقات نقراها فلا نخرج منها بشيء يتلاءم مع حركة البعث في النقد .

كل ما هنالك كلام عن مذهب الشيخ محمد عبده في تحصيل مادة اللغة ، وانها تحصيل ملكة وليست بتحصيل قواعد ومصطلحات .

وهو مسبوق في هذا بابن خلدون .

ثم نص مطول للاستاذ الامام يستدل به المؤلف على تاثيره بلغة التراث ، ولقد كان نصف او ثلث او ربع هذا النص يكفي في الاستشهاد على ما اراد المؤلف الاستشهاد عليه به .

ولما كان الدكتور الدسوقي بصدد الكلام عن الشيخ حسين بن احمد المرصفي وكتابه (الوسيلة الادبية) وهو ركيزة نقدية لا يستهان بها وجدناه يعنون كلامه عنه بقوله (جولة في الكتاب) .

ولعل الدكتور عبد العزيز يوافقني على أن عنونته دراسته الجادة للوسيلة الادبية بجولة ، عنونته قاصرة وغير علمية ، وقد ظلم بها المؤلف نفسه وعمله .

يقول المرصفي عن الادب : « انه معرفة الاحوال التي يكون الانسان المتخلق بها محبوبا عند أولي الالباب » .

ويعلق الدكتور الدسوقي على ذلك بقوله : فالادب هو الشيء الذي ينمي العلاقات الاجتماعية بين الناس ويحسن السلوك ، ويجعل الانسان محبوبا عند ذوي العقول .

ومفهوم ان هذا تعريف للادب بمعناه الاجتماعي لا بمعناه الفني .

وبعد كلام كثير للمرصفي عن الادب لا يخرج عن كونه تكريسا له بمعناه الاجتماعي يقول الدكتور الدسوقي:

« ولا شك ان المرصفي يخلط في معظم الاحيان بين ادب النفس وادب الدرس على طريقة العرب القدامى ، الا انه لا يلبث ان يعود الى تحديد الادب بمعناه الفني وتستقيم نظرته بعد ذلك » .

واقول له : كان ينبغي ان تنحي ما ذكرته كله ، فهو ليس خلطا بين ادب النفس وادب الدرس كما تقول ، وانما هو من ادب النفس في الصميم .

وتحت عنوان (عنوان اللغة) يقول :

ثم بدأ المرصفي موضوعه الاصلي بدراسة اللغة العربية من حيث هي « ألفاظ معدودة عينت عند العرب للاشياء لتحضر بها في العقول عند الادارة » ، والالفاظ عنده مكونة من حروف تسمى : حروف المباني ، « وحرف المبنى صوت مقطوع من المقاطع التسعة والعشرين التي تسمى مخارج الحروف » ، « والصوت كيفية قائمة في الهواء » ، « وتعيين اللفظ للشيء بحيث يكون وظيفة اللفظ احضار ذلك الشيء في اذهان المخاطبين عند اطلاقه وارساله من الفم ، يسمى وضعا ، ويسمى الشيء الذي وضع له اللفظ معنى ، واحضار اللفظ معناه في ذهن من علم وضعه عند سماعه دلالة ، وحروف اللفظ تسمى مادته ، والهيئة الحاصلة للحروف من تأليفها واوصافها تسمى الصورة الافرادية » .

هذا ونحوه ليس نقدا ، والمؤلف ينزح كل ما عند المرصفي ايا كان نوعه ، وليكن معلوما ان المرصفي كان يريش شداة الانشاء بالمعرفة العميقة وبكثرة القراءة حتى يشبوا عن الطوق في الادب ابداعا لا نقدا ، فلنتدبر ذلك جيدا ، ولنذكر ان اسم كتابه : (الوسيلة الادبية) .

يقول المؤلف : « وقد ترجمت في مطلع القرن العشرين روائع المطولات الشعرية كالالياذة ورباعيات الخيام وغيرهما من روائع الاشعار ، ودارت حولهما دراسات نقدية اهم من قيمتها الفنية » .

ولا شك ان هذا الكلام فيه مغالاة مسرفة .

اجل ان الدراسات التي دارت حول الالياذة ورباعيات الخيام كانت اهم منهما بالنسبة للدكتور الدسوقي ولرسالة الدكتوراه التي كان بعدها ، اما ان تلك الدراسات حول الالياذة والرباعيات كانت اهم منهما على الاطلاق ، فلا .

بعد ان استعرض اليازجي طائفة من آراء الاوروبيين في الشعر قال :

وقد طالعنا طائفة من اقوال ادباء الاعاجم في هذا المعنى بين مختصرها ومطولها وقديمها وحديثها فوجدنا ثم اضطرابا شديدا بحيث لم نكد نقع على القول الفصل في حد الشعر عندهم وبيان ماهية النثر بما يقطع عرق اللبس بينهما ، وقد اتفقوا على ان المرجع في تمييز الشعر من النثر هو ما يحدثه من التأثير في النفوس والتسلط على الوجدان .

وقد علق الدكتور الدسوقي على هذا الكلام بقوله :

« ولا شك ان اليازجي يتعسف في تحديد فروق حاسمة بين اشياء لا تحتمل بطبيعتها تلك الفروق الصارمة، وانما يكفي في توضيح تلك الفروق ذكر الخصائص الفنية

والجمالية والشكلية لكل نوع من النوعين .

واقول للدكتور الدسوقي : هذا بالضبط هو ما يبحث عنه اليازجي وهو لا يتعسف واذا كان من النثر ما يتسلط على الوجدان كالشعر ، فان اليازجي – كسائر النقاد في الشرق والغرب – راح يبحث عن الفروق الدقيقة بين الشعر والنثر ، وهو في هذا منطقي ، او على الاقل كالسابقين ، اما انه يتعسف فلا ولا ، وارجع الى قراءته .

ومن الالتواء في الاداء ، وانا استغربه لما اعرفه عن نصاعة اسلوب المؤلف واستقامة عبارته وقوله :

« وقد انساق الناقد (ادوار مرقص) وراء فكرة البعد عن التكلف والاغراب حداً جعله يطالب الشاعر بألا يذكر في شعره شيئا من الافكار الفلسفية » .

فالفعل (انساق) في العبارة لا يمكن الربط بينه وبين الرسم (حدا) .

ويستقيم الكلام لو قلنا : وقد بلغ الناقد في الجري وراء فكرة البعد عن التكلف حدا جعله ...

يقرأ الدكتور الدسوقي في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية الذي صدر سنة ١٩٠٠ لمحمد دياب عبارة بسيطة عن اثر البيئة في الادب ، فيطير بها فرحا ويظن انها اول كلام في هذا الصدد .

قال محمد دياب : « الا ان تجدد المرئيات المبتدعة مع العصور المتوالية والامكنة المختلفة جعلت صور الانشاء فيها بديعة الآن عما كانت عليه قبل ، فالحضارة والاقليم لهما تأثير عظيم على الوصف الكتابي كتأثيرهما على الشعر »

وانتهت عبارة محمد دياب ، وهذا هو تعليق الدكتور الدسوقي عليها قال : « ولا شك ان هذه الملاحظة الذكية في تأثير البيئة المادية والمعنوية على الاعمال الادبية منذ هذا الوقت المبكر (كذا) كانت من اهم الملاحظات التي لفتت الدارسين والباحثين الى آثار البيئة على العمل الفني » (كذا) .

ويظهر ان الدكتور الدسوقي محتاج الى الالمام بالتراث النقدي ليرى ان جديد العصر قديم قديم .

لقد التفت النقاد والادباء الى اثر البيئة في الادب منذ وقت مبكر حقا يا دكتور عبد العزيز .

من هؤلاء ابو عمرو بن العلاء وابو العتاهية وابن سلام وابن قتيبة والآمدي وابن رشيق ، بل ان القاضي الجرجاني قد طبق مبدا تأثر الادب بالبيئة عمليا على مشكلة السرقات الادبية برفضه متابعة غيره من النقاد في ادعاء السرقة على الشعراء الذين يتناولون معنى واحدا او صورة واحدة هي نتاج الطبيعة وضرب لذلك بعض الامثلة .

ومن قوله بالبيئة وتأثيرها ماديا في الامور الحسية هذا الكلام له :

« وقد يختلف خلق الظباء والوانها باختلاف المنشأ والمرتع » ولم ننس بعد ما رواه المرزباني في الموشح عن محمد بن ابي العتاهية قال : انشدت ابي شعرا من شعري فقال : اخرج الى الشام . قلت : ولم ؟ قال : لانك ثقيل الظل مظلم الهواء جامد النسيم . ومعنى هذا ان لبيئة الشام لونا خاصا يؤثر في الجو النفسي لابنائها وهذا بدوره يظهر اثره فيما ينتجون من اعمال ادبية .

وما ذكره صاحب العمدة عن ابن الرومي من ان لائما لامه فقال له : لم تشبه كتشبيهات ابن المعتز وانت اشعر منه ؟!

قال : انشدني شيئا من قوله الذي استعجزتني عن مثله ، فأنشده في صفة الهلال :

وبدا الهلال كزورق من فضة ... قد اثقلته حمولة من عنبر

فقال : زدني ، فأنشده :

كانما الريونها ... والشمس فيها كالية
مداهن من ذهب ... فيها بقايا غالية

فصاح : واغوثاه ! يا لله ! لا يكلف الله نفسا الا وسعها ، ذلك انما يصف ماعون بيته لانه ابن الخلفاء ، وانا اي شيء اصف ؟!

ولكن انظروا اذا وصفت ما اعرف ، اين يقع الناس كلهم مني ؟!

هل قال احد قط أملح من قولي في قوس الغمام :

وقد نشرت ايدي السحاب مطارفا ... على الافق دكنا وهي خضر على الارض
يطرزها قوس الغمام باصفر ... على احمر في اخضر وسط مبيض
كاذيال خود اقبلت في غلائل ... مصبغة والبعض اقصر من بعض

وفي العصور الوسطى وجدنا حازما القرطاجني ينبه الى ان الاديب لا يوجد في فراغ ، ولا يعيش خارج نطاق الزمان والمكان وانما هو ابن بيئته وابن مجتمعه ، يتعامل معهما وفيهما ، ويتحول بهما الى طاقة خلاقة مبتكرة ، وهو القائل : « وانما الراي الصحيح الذي عليه المعول ، هو ان للشعر اعتبارات في الازمنة والامكنة والاحوال وللصفدي في فض الختام كلام صريح عن اثر البيئة في الادب ، فهو يثني على جهود ادباء مصر والشام في استنباط الالوان البديعية وبخاصة الاستخدام والتورية ويعلل ذلك بعنصري الماء والهواء فهما اصل كبير في اللطف والذكاء وبعد كلام طويل يقول :

واذا ثبت ان ماء النيل اجود المياه ، وان هواء الشام اجود الاهوية فلا جرم ان يكون اهل هذين الافقين على درجة عالية من اللطافة والرقة ، ذلك ان الانسان تتأثر طباعه بما يتغذى ويتنسم » .

ولما أطرى السبكي ذوق المصريين وسجل استغناءهم به وبذكائهم عن حدود البلاغة ورسومها ، ذكر ان الفضل في ذلك للنيل .

(انظر طبقات الشعراء ص ١١٧ والموشح ص ٣٧٥

والشعر والشعراء ص ٦٣ والموازنة ص ٢٢ والمختلف والمؤتلف ص ٢٤٩ والعمدة جـ ٢ ص ٢٢٥ والوساطة صفحات ١٧، ١٨، ٢٢، ١٨٠، ١٨١ ومنهاج البلغاء ص٣٧٦ وفض الختام الورقات ١٠، ١١، ١٢ وعروس الافراح جـ ١ ص ٥) .

وهذا الفهم العميق لاثر البيئة في الادب من جانب النقاد العرب يوافق احدث ما وصل اليه العلم الحديث في تأثير العوامل الطبيعية ، فالبيئة تكيف اسلوب الانسان وعقليته كما تكيف بنيته العضوية ، وفي ذلك يقول فولتير : « انك تحس عند اعظم الكتاب المحدثين طابع وطنهم » .

اما النقد الاوروبي المبني على دراسة البيئة ، فقد بدا سنة ١٧٢٥ بكتاب العلم الجديد للناقد فيكو ، ثم تطور على يد منتسكيو في كتابه (روح القوانين) سنة ١٧٤٨ ، وفي القرن التاسع عشر سعدت هذه النظرية بكتاب السيرة الادبية للناقد الانجليزي كولردج ، وقد نشره سنة ١٨١٨ وهو يعد انجيل النقد الحديث ، ويعتبره النقاد المعاصرون اعظم كتاب نقدي باللغة الانجليزية .

وقبل ذلك بقليل على وجه التحديد سنة ١٨٠٠ ادخلت مدام دي ستايل الى فرنسا المبدا الالماني القائل بان الادب تعبير عن روح المجتمع في كتابها (الادب وعلاقته بالناحية الاجتماعية) ، وهي تعلق على البيئة كثيرا من الاهمية في انتاج الادب ، ولا عجب ، فهي لا تفهمها على انها طبيعة فقط ، ولكن على انها خصائص مادية وعقلية وروحية .

وقد جعل تين (١٨٢٨ ـ ١٨٩٣) للنقد ثلاثة معايير كبرى هي الجنس والعصر والبيئة ، واصل مذهبه بناء الاحوال النفسية من فكر ووجدان وارادة على الاسباب المادية .

واذا كان تين قد نظر الى البيئة على انها عامل من عوامل ، فان اشبنجلر ـ مثل استايل ـ يرى انها كل شيء في العملية الابداعية ، ولعله من هنا جاء ايمان الجغرافيين بنظرية الحتم الجغرافي ، وفحواها ان البيئة الجغرافية لها تأثيرها الحتمي في الكائن الحي ، وهم يدفعون بها الى مدى بعيد حين يقررون ان الامة ابيدت لو قدرت لها الحياة مرة ثانية ورجعت الى بيئتها الاولى فلا بد ان تتكرر وان تكرر اساليب الحياة التي عاشتها من قبل ، اي بصرف النظر عما ادرك الناس من مظاهر الحضارة ووسائل المدنية .

(انظر مشكلة السرقات الادبية للدكتور هداره ص ٢٦٤، وتيارات ادبية بين الشرق والغرب للدكتور ابراهيم سلامة ص ٢٤٣ وص ٢٧٢ والنقد الادبي ومدارسه الحديثة لستانلي هاتين جـ ١ ص ٢٤ ـ ٢٧ والاسس الجمالية في النقد العربي للدكتور عز الدين اسماعيل ص ٢٧١) .

اما بعد ، فقد اطلت في هذا الموضوع على غير ما قصدت .

لكن لا بأس ، فسيجد الدكتور الدسوقي بعد قراءته هذه الفقرة ان لمح محمد دياب لتأثر الادب ببيئة صاحبه في كتابه الذي صدر سنة ١٩٠٠ لم يكن مبكرا ، بل متأخرا ومتأخرا جدا .

ومن الاخطاء النحوية وهي في الاصل اخطاء مطبعية .

(أ) قول المؤلف عن طه حسين : « واغرق اغراقا طويلا في تفصيل الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي عاش في ظلالها ابي العلاء » .

والصواب ابو العلاء لانه من الاسماء الخمسة .

(ب) قول المؤلف : « واعتبر (جرجي زيدان) الفترة القصيرة التي جاء فيها النبي والخلفاء الراشدين ، فترة عارضة في حياة الامة العربية » .

(الراشدين) بالياء خطأ والصواب (الراشدون) بالواو .

ختم المؤلف الفاضل الثالث من الباب الثالث وهو عبارة عن تيار التجديد في النقد العربي الحديث ، اقول :

ختم المؤلف الفاضل هذا الفصل ببيان المنابع الثقافية والروحية التي استلهمها رواد هذا التيار وهم طه حسين ومصطفى عبد الرازق ومحمد حسين هيكل ، وقام بتوضيح ذلك بالنسبة لطه حسين ، وثنى بهيكل ، وثلث بمصطفى عبد الرازق .

والكلام لا يستقيم بهذا الترتيب ، وانما يستقيم بتقديم مصطفى عبد الرازق على هيكل . لماذا ؟!

لان المؤلف في صدر الكلام عن مصطفى عبد الرازق : « واذا كان طه حسين هو رائد هذا التيار، والوقوف عند تأثره يعتبر دراسة لتأثير التيار كله ، لكن لا بأس من ان نشير الى زميليه وتأثرهما بهذا الثالوث النقدي (تين وسانت بيف وبرونتيير) وهذا الكلام لا يستقيم الابالتثنية بمصطفى عبد الرازق والتثليث بهيكل . والدكتور الدسوقي مدعو الى اجراء هذا التعديل في الطبعة الثانية لكتابه ، وما اراه الا انه سيستجيب في القريب العاجل باذن الله .

عول الدكتور الدسوقي اكثر ما عول على كتابات النقاد والثوريين او من سماهم سيادته (نقاد التيار الثوري) الفصل الرابع من الباب الثالث تعليقات غير محتاج اليها ، فكل عصري مثله يستطيع ان يعلقها لانه عصري مثلهم ، بل اكثر من ذلك نجده يورد المقالة الضافية لاحدهم دون تعليق على الاطلاق ، فهو يشغل كل صفحة ٣٢٠ وبعضا من ص ٣٢١ بمقال لشكري يفرق فيه (شكري) بين الخيال والوهم ، وينتهي الموضوع بانتهاء المقال كما قلنا دون تعليق ما ، وكان خيرا له انه قال لنا فحواه . واحالنا في مصدره الذي استقاه منه ونقله عنه ، وهو مجلة البيان ١٩١١ الصفحات من ٦٦٧ الى ٦٦٩ .

وغير ذلك نجده يورد النص الواحد عدة مرات :

يتكلم عن الوحدة العضوية في ص ٣٤٥ فيقول :

وقد الح عليها العقاد طويلا وهو يهاجم شوقي ويتهم شعره بالتفكك ، وعنده ان القصيدة « ينبغي ان تكون عملا فنيا تاما يكمل فيها تصوير خاطر او خواطر متجانسة ، كما يكمل التمثال بأعضائه ، والصورة بأجزائها ، واللحن الموسيقي بأنغامه ، بحيث اذا اختلف الوضع او تغيرت النسبة اخل بوحدة الصنعة وافسدها، فالقصيدة الشعرية كالجسم الحي يقوم كل قسم فيها مقام جهاز من اجهزته . الخ الخ .

ونفس هذا النص نجده في ص ٣٦١ وايضا في ص ٣٧٧ .

وقد ادى تراكم النصوص عنده ، وتزاحمها عليه الى تداخلها وعدم انتظامها .

فهو في منتصف صفحة ٣٣٥ تقريبا يذكر ان العقاد قد كتب مقدمة الجزء الثاني من ديوان عبد الرحمن الموسوم (لآلىء الافكار) الصادر عام ١٩١٣ وتنتهي الصفحة ، وتنتصف الصفحة التالية بمقتطفات من هذه المقدمة ، يوثقها في الهامش رقم ٣ بانها من ديوان عبد الرحمن شكري ص ١٠٤ (هكذا او لعلها ص ١٤) ، ومفهوم انه الديوان الثاني لآلىء الافكار الصادر في سنة ١٩١٣ .

وفجاة يقطع على العقاد استرساله بقوله :

وقد جدد عبد الرحمن شكري مفهومه للشعروموقف الشاعر من الفن والحياة في الجزء الثالث من ديوانه (اناشيد الصبا) الصادر سنة ١٩١٥ ، ويمضي معشكري في مقدمته من منتصف صفحة ٤٤٦ الى نهايتها وسبعة اسطر من صفحة ٣٣٧ .

والغريب انه يوثق كلام شكري باحالتنا ثلاث مرات على المصدر السابق والمصدر السابق كما قلنا هو كلام العقاد في الديوان الثاني ، اي انه يوثق كلام شكري في الديوان الثالث الصادر في سنة١٩١٥ بكلام العقادفيالديوان الثاني الصادر في سنة ١٩١٣ ، وفي هذا من اللبس والاضطراب ما لا يخفى .

وينتهي كلام شكري فينساه الدكتور الدسوقيفورا، ليتذكر كلام العقاد فورا ايضا ويعلق عليه بقوله :

هكذا يدعو العقاد الى عدة اسس نقدية من خلال تقديمه لديوان شكري نستطيع ان نتبينها ، ويتبينها فعلا ويرصدها في اعقاب كلام شكري المقتبس من مقدمة ديوانه الثالث الصادر بعد ديوانه الثاني بعامين .

ما هذا ؟! اني أعيذ الدكتور الدسوقي – وهو مثل اعلى في دقة العمل وشدة الذكاء وقوة اللمح ووضوح الرؤية – اعيذه من ان يكون هو الذي باشر تحويل كتابه من رسالة دكتوراه الى كتاب ، وما اراه الا وثق في صديق له عهد اليه بهذه المهمة ، ولم يخلص الصديق او لم يكن على مستوى الموقف .

هذه الملاحظة تتعلق بالتصميم مثلما تتعلق بالتنفيذ ، ففيها من المنهجية بمقدار ما فيها من الموضعية ، وذلك ان المؤلف الفاضل قد جعل الباب الرابع والاخير – وهو عن اتجاهات النقد العربي الحديث – تمهيدا وخمسة فصول .

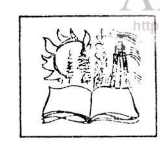
وفي التمهيد للفصل الثالث منه – وهو خاص بالاتجاه الموضوعي – نجد كلاما مكانه التمهيد كله ، وليس التمهيد لفصل منه ، واقرأوا معي هذا الكلام ثم احكموا . قال المؤلف :

« وفي البداية احب ان اقرر ان اصول تلك الاتجاهات التي يتناولها هذا الباب من تاريخية ونفسية وموضوعية وجمالية واجتماعية ، كانت موجودة بشكل تلقائي عبر التيارات التي درسناها في الباب الماضي ، ولكنها لم تكن محددة على هذا النحو ، ولهذا ارتبطت بالافراد وسميناها تسميات عامة ، ولكننا هنا نستطيع ان نلتمس اتجاهات محددة ونسميها تسميات تدل عليها » .

من ذا الذي يقرأ هذه العبارة ، ثم لا يأخذه العجب بسبب مجيئها في ثنايا التمهيد للفصل الثالث ، ولم يكن اصلح منها في التمهيد للباب الرابع باسره ؟!

ولكي نتصور البعد المكاني بين هذا الكلام الذي جاء مقحما في التمهيد للفصل الثالث وبين التمهيد للباب الرابع اقول :

انه يشغل حيزا من ص ٤٤٢ بينما التمهيد للباب كله قد بدا مع ص ٣٨٥ .



وفي نفس التمهيد للفصل الثالث من الباب الرابع نقرأ قول المؤلف الفاضل :

(ولا يمكن ان نستعرض في هذا الفصل كل الدراسات والموضوعات التي تدخل في هذا الاتجاه ، فالقصد من تلك الدراسة ليس استقصاء موضوعات بقدر ما هو تحديد الاتجاهات ووصفها) ..

واقول للدكتور الدسوقي :

ليتك فعلت ذلك الذي تتنصل منه وتزور عنه بدلا من هذا العوم على سطوح كثيرة من الابواب والفصول ، فما هكذا تكون الدراسة المعتمة في رسالة دكتوراه ، واذا لم نجد في امثال هذه الرسائل ومن امثال الدكتور الدسوقي

باقة ورد وياسمين

مهداة الى شاعر حماة الدكتور وجيه البارودي الذي يردد في كل مناسبة : « وانا ابن السبعين اقفز قفزا » .

خلي الملامة والعتاب ‏ ‏ فلربما وضح الجواب
ودع التغني بالشباب ‏ ‏ فأين نحن من الشباب
سبعون عاما بعدها ‏ ‏ خمس الا يكفي دعاب
ماذا نؤمل من حياة ‏ ‏ حلوها مر وصاب
فالعود اصبح واهنا ‏ ‏ والعمر يسرع بالذهاب
والعين غار ضياؤها ‏ ‏ والاذن نق واضطراب
وبياض شعر في المفارق ‏ ‏ ليس يخفيه خضاب
وترهل الوجنات اين ‏ ‏ بريقها ولى وغاب
وتقول انك كالغزالة ‏ ‏ رحت تقفز في الشعاب
اخشى تظن انني ‏ ‏ في القول اخطأت الحساب
وانا الوفي على العهود ‏ ‏ وليس من طبعي اغتياب
ما هند عندك ما بثينة ‏ ‏ قل بربك ما الرباب
يا شاعر العاصي المفرد ‏ ‏ في الضحى لحن انسياب
انا ما خفرت وداده ‏ ‏ فعلي للعاصي عتاب
اهوى مغانيه وايام ‏ ‏ لنا غربت عذاب
كنا البراءة في الهوى ‏ ‏ كنا الندامي لا نعاب
واليوم لا ضم النهود ‏ ‏ ولا ارتشاف للرضاب
وعبرت درب العمر ‏ ‏ اجتاز المخاطر والصعاب
ورجعت لا الوي على شيء ‏ ‏ واسدلت الحجاب
كيلا ارى شعراء هذا ‏ ‏ الجيل تنعق كالغراب
يا شاعر الغزل البريء ‏ ‏ كانه ودق السحاب
آمنت بالشعر الاصيل ‏ ‏ يهزني وبي انجذاب
غني تغنيك البلابل ‏ ‏ في المرابع والرحاب
ودع الشباب لاهله ‏ ‏ فلقد مضى عهد الشباب

سلمية ــ سورية ‏ ‏ عارف تامر

هذا الاستقصاء فأين وممن سنجده ؟!

وقبل وبعد فالكتاب قيم قيم ، وقد سد فراغا كبيرا في المكتبة العربية ولن تنال منه هذه المآخذ كما لن تنال من صاحبه الفاضل ، فالكمال الانساني كمال نسبي ، يقاس بمقدار القرب او البعد من هدف العامل وقد كان الدكتور عبد العزيز الدسوقي في كتابه شديد القرب من هدفه .

لكنه وقف به على مشارف الحرب العالمية الثانية .

واقول له : لا بد ان تواصل المشوار ، فليس اقدر منك على ذلك بما تهيأ لك في هذه الدراسة الرائدة ــ على عادتك ــ من رؤية فنية صادقة ، وبما توفر لديك من مراجع ، ثم ان الامر بالنسبة اليك مواصلة عمل، ومواصلة العمل اسهل من ابتدائه .

سدد الله على طريق التوفيق خطاك آمين .

جامعة المنصورة ‏ ‏ عبد العزيز قلقيلة

ظاهرة الكبر في بداية جديدات

بقلم وداد سكاكيني

* * *

نشر القصصي الاديب عادل ابو شنب مقالا (١) مقالا رائعا في « الدستور » عن ظاهرة الكبر في بداية اديبات جديدات كانت الاخيرة منهن صاحبة مجموعة قصصية من بلاده لم تكن ناشئة في العمر ولا في الادب ، بل من جيل تجاوز سن البداية والممارسة ، وان لم تكن هذه السن محددة محتومة حتى كانت « اعتدال رافع » صاحبة المجموعة القصصية حافزة لمقال الاديب العادل ، وقد قرأ من قبل مجموعات لقصصيات وروائيات سبقنها الى هذه المتاعب التي هانت لدى أمثالها ، وجاء بأسماء كاتبات لامعات لمعت اخبارهن في الصحف والمؤلفات، بينهن فئة من الطليعة في مصر والبلاد العربية لم تتبدل كما قال مضيفا اليها من عرفهن في وطنه ، حاشرا معهن قصصية بدأت فجأة مثل اعتدال المظلومة ، لم تنشر كلمة الا بعد ان صارت جدة ونسي صاحب المقال نظيرة لها من المترفات لم تنشر حرفا الا بعد ان اصبحت اما ، وغير هاتين اللامعتين متشابهات في اسباب الظهور اديبات بالارادة والعافية ، قد اتخذن من الادب الهية ووسيلة للشهرة ، وقدمهن للقراء اصدقاء في هدف التحدي بالتقليد والمغالطة في التقدير ليغطين على الاديبات حقا ، او يضفن اليهن ظلما ، وحسب التواقة للظهور اديبة القاء قصيدة في ندوة او قصة ، فيأخذ بيدها من تصطفيه لدعمها .

وقد ذكر الاستاذ ابو شنب بعض الاديبات حقا في مقاله بشيء من الملل وهو يعرف أنهن بدأن حياتهن الادبية على الحداثة وفي اثناء المدرسة وربما تأخر قليل منهن في نشر كلمة او خاطرة ريثما تخرجن في معهد او جامعة ، وكانت لهن بعد ذلك دواوين ومؤلفات في القصص والدراسات اخرجنها في عز الشباب ونضج الفكر والمواهب المبكرة ، ولا يتقدمها اليوم نتاج أندادهن من الادباء .

ولم يكن ما يقال له الادب النسائي مقصورا على نتاج الطليعة البارزة التي ازدادت عددا ففي العالم العربي كثير من الشاعرات وكاتبات النقد والمقال ، على اختلاف الاعمار والاقدار ، لكن الاستاذ عادل أبو شنب اراد في قوله الممتع ان يقرأ لاديبة شابة كتابا من صنعها وفي صباها ، فقد سئم ادب الكهول ، وشاقه ادب حديث تكتبه الفتيات فتساءل : اين هي هذه الاديبة التي لا تظهر الا في كبرة او سانحة عابرة ؟

لو بحث واستقصى لوجد بواكير منشورة لصبايا انكرنها او اغفلنها بعد حين اذ نضجت فيهن القرائح والخواطر ، واتسعت الثقافة والآفاق ولا ادري كيف نسي الاديب العادل نفسه مقالا نقديا له نشره منذ بضعة عشر عاما في صحيفة دمشقية ، عجب فيه لاقدام شاعر الشام وادباء السوانح على تقديم بعض الحسان المترفات قبل الاوان قصصيات لم يتزودن بثقافة في اصول العربية والبيان، فكيف يسأل اليوم عن الاديبة الفتاة التي تستعجل الخطى قبل ان تتمكن من السير مستوثقة من تجاربها ، وهو الذي يعرف أن الادب موهبة وثقافة ومرانة طويلة ، قد تكون فيها متعبة لمن أحبت ان تكون اديبة في ريق عمرها قبل ان تتمرس بمقومات فنها وتعبيرها ، اما ذوات البداية المتأخرة فيختصرن الطريق لكي لا تبقى حاجة في نفوسهن .

ومن عجب ان يقرأ الاستاذ ابو شنب آثار الاديبات في وطنه والعالم العربي شابات وكهلات يظهرن حينا ثم يزهدن في متاعب لا تنتهي أو يلفهن الصمت والنسيان الا من أصرت على ان تظهر بين الدائبات المعدودات ، فاذا غابت بعض الوجوه زعم كاتب المقال ان الارض العربية تعاني قحطا في المواهب النسائية ، فلا تنبت فتيات الادب كما تنبت سيقان السنابل فما هي اذن هذه الظاهرة في ندرة الاديبات الثقات وبداية الجديدات في الكبر هل لها دلالة ما ؟

« كي نستنبت الارض ينبغي ان تكون الارض معطاء، اما في ارض مجدبة ، مهملة ، متروكة ، فلا ينبت زرع ، وان نبت فوحشي هو يشق طريقه وينمو بصعوبة مجتازا سلسلة من الكوابح والمعيقات ، اقلها شأنا ان في الاسرة العربية من يعارض في اشتغال المرأة في الادب ، مثلما يعارض في اشتغالها في الفن والسياسة واحيانا في اشتغالها بأية حرفة » .

« من الخنساء الى اعتدال رافع ـ وليس المجال مجال مقارنة بالطبع ـ نبت الزرع وحشيا في ارض غير ممهدة ، ومن الخنساء الى اعتدال مرورا بعشرات النباتات التي شقت طريقها الى الشهرة بجهد فردي يشبه المستحيل لم نر الاديبة الشابة ، بل راينا الاديبة الكهلة « التي قد لا تعترف قط بهذه الكهولة » تروي ، تقص ، تتذكر هموما نسائية ، ليس اكثر ، واذا تنازلنا عن شرط العمر وانعمنا

النظر الى القحط الذي منه نعاني وجدنا المفارقة في مثل حجم الكرة الارضية » .

هذا غلو في الراي الا يذكر الاستاذ ابو شنب ظهور مي زيادة في الربع الاول من هذا العصر صبية حسناء كانت احدوثة زمانها في طلعتها اديبة شابة بين اعلام الفكر والادب من الكهول لا يتعاظمها حوار او حديث في لهجتها المحببة او في لغات اجنبية تعلمتها ، ولما تقدمت سنها وضاعت آمالها أعرض عنها الذين كانوا يلتمسون الوسيلة لندوتها ومودتها ، على ان مؤلفاتها التي حوت ادبها وسيرتها بقيت بعد غيابها دليلا عليها .

وهذه ظاهرة لا تستعصي دلالتها ، بل تجعلنا نقول ان الزمن قد تغير وان اديبة اليوم لا بد لها ان تجاري عصرها بثقافتها والتمرس طويلا بفنها وتعبيرها ، لتفرض حقيقتها وكفاحها ، وندرة الاديبات المعدودات خير من كثرة في التكلف والتقليد ، والمغالطة فيما يقدمن من نتاج مبكرات او متأخرات .

والارض العربية كانت وما زالت خصبة طيبةلاتعاني عقما ولا قحطا ، وانها لتنبت اشتات المواهب والفنون ولم تبق الامهات معارضات في ظهور بناتهن اديبات ، وما ضاق الآباء بهذا الظهور كما يظن الاديب العادل ، فهن اليوم موظفات ومحترفات وفيهن الفنيات والسياسيات ، ومما جاء في مقاله :

« منذ الخنساء التي هزتها الفجيعة بأخيها صخر لم تنبت الارض العربية قامات الشاعرات مثلما تنبت سيقان السنابل ، هذا هو السؤال ؟

« كانت البيئات العربية الى وقت قريب تستاجر النادبات في المناحات ، هل أقفرت الارض من شاعرة تشق الصخر وتفلق الحجر وتخرج في ثيــاب المرائي لتبكي في شعرها وتنوح ، وتعطينا صورا عنا في قصيدها او قصتها ، في ادبها بشكل عام ، لاننا يئسنا من ادب الرجال وصرنا تواقين الى ادب النساء الشابات » .

ولا احسب هذا يأسا من ادب الرجال ، وانما سئم التكرار والاجترار ، فتاق الى ادب حديث يكتبه الشباب في قلوبهم ، وهو يعلم بأن ادبنا القديم والجديد عرف شاعرات مطبوعات عديدات وقد شهد الذين اصطنعوا العداوة للمرأة في الادب المعاصر بأنها لا تحسن في الشعر غير الرثاء ، ومنهم عباس محمود العقاد الذي كان يستهين بأدب المرأة ثم غير رايه بعد حين ، اذ عرف شاعرات موهوبات يقلن الشعر كما يقوله الرجال وفي كل مجال .

ويبدو ان السائل عن شاعرات جديدات لم يقرأ خنساء عصرنا « هند هارون » التي فاض قلبها الحزين شعرا في رثاء وحيدها عمار ، وكان بكاء هند هارون ينسينا خنساء العرب في دهرهم القديم ، وقد نشرت ام عمار ديوانين يتألقان بشعرها الرائع ومعانيه المنوعة ، وثمة شاعرات في شتى البلاد العربية مجددات مثقفات ، منهن المتفوقات في شعر قلنه بالفرنسية ، وكانت هدى اديب في طليعة هؤلاء ، وقد احسنت أديبة لبنان ومعلمة الادب روز غريب في اهتمامها بالشاعرة العربية في نهضتها الراهنة ، ونشرها منذ قريب كتابها « شاعرات معاصرات » .

وكما في الادباء من يتكلفون الادب ويقلدون المطبوعين في اصرار ، كذلك تجد بين الاديبات مقلدات ومرددات وقد يفيض للتحدي والمحاكاة ما لا يفيض للاصالة والحقيقة من تكريم وتقديم، على انظاهرة الكبر في بداية جديدات في الادب تحير ولا تقتنع ولا يستعصي تفسيرها او تبريرها على دارس لها او باحث فيها ، وتباشير الموهوبات الشابات التي رآها الاديب ابو شنب في صور من ادبهن في« البحرين» قد رد اليه الامل بظهور نجوم في ليلة صحو او بالمصادفة كما قال ، وكان يظن ان القحط في المواهب قد يكون مرده الى ما تعاني الامة العربية ، لكن السنابل تنهض من قلب الموت ، وهذا دليل على انها خالدة متجددة .

ولعل ناقدا يتناول في القريب ظاهرة الاقبال على الفن القصصي دون غيره في بلادنا او التهافت على الشعر الحديث في الحاح ومنافسة .

ولا يغيب عن البال ان الاديبات الشابات سرعان ما يمضين في العمر والفكر والقلم الى نضج ورجحان كمابرى صاحب المقال الرائع في ادب اللواتي بدأن مبكرات مثابرات وقد تتبع القارىء آثارهن كما قدرها النقاد والادباء وهو منهم .

(١) مجلة « الدستور » العدد ٤٧٦ السنة العاشرة اغسطس ١٩٨٠ ص ٦٢ .

دمشق — وداد سكاكيني

عثرات الأدباء

بقلم محمد العدناني

* * *

الاموة (بتضعيف الواو) والامومة

ويسمون صيرورة المراة امة (مملوكة غير حرة) : امومة .
والصواب : اموة ، وفعلها :

(ا) امت المراة تأمو اموة .
(ب) اميت المراة تأمى اموة .
(ج) اموت المراة تأمو أموة .

اما الامومة ففعلها :

(ا) امت (بتضعيف الميم) المراة تؤم امومة .
(ب) امت (بتضعيف الميم) المراة تأم (من باب فرح) امومة .

وممن ذكر ان الاموة هي صيرورة المراة أمة (بفتح ففتح) اللحياني ، والصحاح ، ومعجم مقاييس اللغة ، والمحكم ، والمختار ، واللسان ، والقاموس ، والمزهر للسيوطي ، والتاج ، والمد ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، وتذكرة علي ، والمعجم الكبير ، والوسيط .

اموي (بضم ففتح) اموي (بفتح ففتح) اميي (بضم ففتح فتضعيف)

ويخطئون من يقول : العصر الأَموي ، ويقولون ان الصواب هو : العصر الأُموي ، لان الاموي هي النسبة الى امة ، وهي المراة المملوكة (خلاف الحرة) . والحقيقة هي:

(ا) الأُموي (نسبة الى امية) : التصحيف والتحريف للعسكري ، والصحاح ، وتثقيف اللسان لابن مكي الصقلي، واللسان ، والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، ومحيط المحيط واقرب الموارد ، والمتن ، والمعجم الكبير ، والوسيط .

وذكر اللسان ، والمصباح ، والتاج ، والوسيط ان هذه النسبة (أُموي) ، هي على القياس .

(ب) والاموي (نسبة الى امية) : الصحاح ، واللسان والمصباح ، والقاموس ، والتاج ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد ، والمتن، والمعجم الكبير .

وقال الصحاح ، ومحيط المحيط ، واقرب الموارد : ربما فتحوا همزة (اموي) ، وهذا يعني ان (الاموي) اعلى .

وقال اللسان ، والمصباح، والتاج ان هذه النسبة (اموي) هي على غير القياس .

(ج) والاميي (نسبةالى امية) : سيبويه ، والصحاح، واللسان ، والقاموس ، والتاج ، ومحيط المحيط ، والمتن، والمعجم الكبير .

(د) والاموي (بفتح الهمزة) (نسبة الى امة) : الحسن العسكري في التصحيف والتحريف ، والصحاح ، واللسان، والتاج والمد ، ومحيط المحيط، واقرب الموارد، والمتن ، والمعجمالكبير ، والوسيط .

وذكر الوسيط ان هذه النسبة (الاموي) هي على السماع .

أما كلمة (امية) فهي تصغير (امة) .

ويقولون : ما أَن سمعت الام بكاء طفلها حتى ركضت اليه . والصواب : ما ان سمعت الام ...، لان (ان) المكسورة الهمزة ، اذا جاءت بعد (ما) النافية ، تكون زائدة :

(ا) اذا دخلت على جملة فعلية ، كقول النابغة :

ما ان أتيت بشيء انت تكرهه ... اذن فلا رفعت سوطي الي يدي

وفي ديوانه : (ما قلت من سيىء مما رميت (بضم الراء) به) .

وقول الشاعر :

جزيتك ضعف الود لما اشتكيته ... وما ان جزاك الضعف من احد قبلي

(ب) او دخلت على جملة اسمية ، كقول فروة بن مسيك المرادي :

فقل للشامتين بنا افيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا
فما ان طبنا جبن ، ولكن ... منايانا ودولة آخرينا

مرض حتى أنهم لا يرجونه

ويقولون : مرض فلان حتى أَنهم لا يرجونه. والصواب مرض حتى إِنهم لا يرجونه ، كما جاء في مد القاموس ، في مادة (ان) .

ويقول بعض النحاة ان همزة (ان) تكسر بعد (حتى)، التي تفيد الابتداء ، نحو :

(ا) يتحرك الهواء ، حتى ان الغصون تتراقص .

(ب) تفيض الصحراء بالخير ، حتى انها تجود بالمعادن الكثيرة .

اقسم بالله ان العرب لابطال

ويقولون : اقسم بالله أَن العرب لابطال . والصواب: اقسم بالله ان العرب لابطال ، لان همزة (ان) هنا يجب ان تاتي مكسورة لانها :

(ا) وقعت في صدر جملة جواب القسم .

(ب) ولان خبرها سبق باللام :

فان لم يسبق خبرها باللام ، جاز لنا ان نقول :

(ا) اقسم بالله إن العرب ابطال .

(ب) او : اقسم بالله أن العرب ابطال .

قال إن او ان الحر شديد

ويخطئون من يقول : قال ان الحر شديد ، ويقولون ان الصواب هو : قال ان الحر شديد ، لان همزة (ان) تكسر بعد فعل القول ومشتقاته . ولكن :

يجيز بنو سليم فتح همزة (ان) ، بعد فعل القول ومشتقاته ، فيقولون :

(ا) قال ان الحر شديد .

(ب) او قال ان الحر شديد .

وانا ارى ان نجتنب فتح همزة (ان) ، تقليلا للشذوذ في اللغة العربية ، وتقليما لبراثنه ، على ان لا نخطىء من يفتحها اكراما لقبيلة الخنساء ، الشاعرة العربية المخضرمة الخالدة .

هم غير آمنين

والا ما طالبوا بالحدود الآمنة

ويقولون : (ا) هم غير آمنين والا لما طالبوا بالحدود الآمنة . و (ب) ان اعطي الانسان ما طلب لتمنى ان يزاد .

والصواب :

(ا) .. والا ما طالبوا ..

(ب) .. ما طلب تمنى ان يزاد .

ثم قررت لجنة الالفاظ والاساليب في مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، ما يأتي :

« يخطىء بعض النقاد هذين الاسلوبين ونحوهما مما تجيء فيه اللام بعد (ان) الشرطية ، على اساس ان القواعد النحوية لا تجيز اقتران جواب (ان) باللام .

« وقد درست اللجنة هذه المسألة ، ثم انتهت الى تصحيح استعمال الاسلوبين ، وتوجيههما بأن اللام فيهما واقعة في جواب (لو) محذوفة ، او في جواب قسم مقدر اذا كان الكلام يقتضي التوكيد » .

ولكن جواب مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، في دورته الاربعين ، المنعقدة بين ٢٥ شباط و١١ آذار ١٩٧٤ ، راى ان يتجاوز قرار لجنة الالفاظ والاساليب .

قلت له ان يفعل

خطأ الشيخ ابراهيم أليازجي من يقول : قلت له ان يفعل ، وقال ان الصواب هو : قلت له ليفعل (بلام الامر) ، او : قلت له يفعل (بضم اللام) او يفعل (بتسكين اللام) ، اعتمادا على قول للنحاة يمنع وقوع (ان) بعد لفظ القول .

ولكن لجنة الالفاظ والاساليب في مجمع اللغة العربية بالقاهرة اتخذت القرار الآتي :

« يبدو ان تخطئة اليازجي بنيت على اساس قولهم كون (ان) هنا مفسرة ، وبالموازنة بين اقوال النحاة في (ان) المفسرة ، يتبين ان بينهم خلافا في وقوعها بعد القول : فمنهم من اجازه ، ومنهم من منع .

« ولكن (ان) في التعبير الذي توجهت عليه التخطئة ليست هي المفسرة ، بدليل ان المستعمل له ينصب ما بعدها ، فلا يخطر له ان يقول : قلت لهما ان يفعلان ، ولا قلت لهم ان يفعلون .. بل هي مصدرية ، والمصدر المؤول اما بدل من مقول مقدر ، او مجرور بالباء المحذوفة .

« ولهذا ترى اللجنة ان التعبير جائز ، ولا حرج فيه على متحدث او كاتب » .

وقد قبل مؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة قرار لجنة الالفاظ والاساليب دون مناقشة ، في دورته الاربعين المنعقدة بين ٢٥ شباط و١١ آذار ١٩٧٤ .

يقول العلماء ان الحياة

موجودة في المريخ (بكسر الميم)

ويخطئون من يقول : يقول العلماء أن الحياة موجودة في المريخ ، ويقولون ان الصواب هو : يقول العلماء انالحياة موجودة في المريخ ، لان همزة (ان) تأتي مكسورة بعد الفعل (قال) وجميع مشتقاته . ولكن :

تعني جملة « يقول العلماء » هنا : « يظن العلماء » ، لان العلماء يظنون ان في المريخ حياة ، ولا يملكون الدليل القاطع ، والبرهان الساطع على صحة ظنهم . وتكهن العلماء هنا هو بمعنى (الظن) الذي ينصب فعله مفعولين ، فيكون المصدر المؤول من (ان الحياة موجودة) في محل نصب يسد مسد مفعولي (ظن) .

علمت ان حب العرب لنوع من العبادة

ويخطئون من يقول : علمت أن حب العرب لنوع من العبادة ، ويرون ان الصواب هو : علمت ان حب العرب لنوع من العبادة .

وهم في ذلك مخطئون ، لان همزة (ان) تكسر وجوبا عندما توجد لام الابتداء في خبرها (لنوع) ، لان لام الابتداء لها الصدارة في جملتها ، فتمنع ما قبلها ان يعمل فيما بعدها . وهنا تأخرت اللام عن مكانها ، لوجود (ان) التي لها الصدارة . والعلة الحقيقية في تأخيرها هي السماع عند العرب ، كما يقول صاحب النحو الوافي .

فان لم تكن اللام في خبر (ان) جاز في همزتها الفتح والكسر كلاهما ، فنقول :

(ا) علمت أن حب العرب نوع من العبادة .

(ب) او : علمت إن حب العرب نوع من العبادة .

والجملة الاولى أعلى .

بيروت : شارع الجامعة العربية
بناية الاسكندراني رقم ٢

محمد العدناني

رفرفة في القاع

بقلم : طلال موصللي

طفح الضباب ..
دخل اليه ..
الضوء يذبل بسرعة ..
تصمغت على البلاط قدماه العاريتان .. يحز طرف الصندوق كتفه . لطخ شبحه النور المتعكر ، تعجرف على الحائط .. اخافه ! خطف نظره الى الجالس هناك .. خشي ان تحضره جفلة هذه .. الهيئة! عندما اشتد ضغط الصندوق انزله جانبا بهدوء حذر ...

لجمته دهشة ! انعقد لسانه .. حملق بذهول ..

ـ كم هو كريه هذا التثاؤب .. وهذه الاسنان ؟!

يتصفح جريدة .. هز فنجان القهوة .. تحركت الرواسب ! جرعها !

تتلكأ دائما فرصة المقابلة .. تعقدت في نفسه حركات والده .. سحب الولاعة .. ارضعته العلبة . دبقت بين شفتيه الغامقتين سيجارة غليظة .. قدح النار عليها .. توهج فيه وهم الرغبة ! يعب الدخان .. هرش بثور ساق وعرة .

ازفت لحظة .. اقترب منه .. اهرق ظله عليه !!

ـ الله يقطع عمرك مثلما قطعت قلبي .! تدخل بدون صوت .. مثل اللص ؟!

ـ وصلت لتوي .. باعوا الخبز كله ! أكلوا دوري .. الناس تقتل بعضها هناك !..

ـ الله لا يوفقك ! انظروا الفهيم! افلت صندوق الفحم على البلاط النظيف .. هيا ارفعه ! يرفعوك على المشنقة !!

ـ والله زحام ؟! انتظرت ساعة وربعها .. تكسرت رجلاي .. اأموت من البرد ؟! و .. الصندوق خلع من الاسفل !؟..

ـ يغضب ربي عليك يا لئيم !! بللت الفحم .؟ ضيعت منه ؟!

اصطفقت النافذة في بطن الجدار الاجرب ..! تتوائب أنياب البرد .. حاول ان ينجو بجلده لكنه جذبه بعنف ولطمه على وجهه .. نسخت اصابعه خطوطا قانية .. انغرز مهماز السائس في قفا الطريدة تتروض دما وعرقا يتصبب .. اتقدت عيناه .. ينطحه الغضب !

ـ تقبض على يدي .. تريد ان تضربني يا عاق ؟!!

رعونة فصات شرايين يده عن قلبه عندما تجرات .. سقطت بسرعة :

ـ انك تشتمني دائما بدون سبب!

ـ بدون سبب ؟ حرام اذا فتحت الدكان ساعة ! تتحجج بالدراسة .. اتظنني غبيا ! منذ متى تعلمت الحب يا متسكع ؟ اطلب منه ان يطعمك الخبز ؟!.

ذبح قلبه ! فخ شرس قرض جناحي سنونو يلهو تحت رذاذ خيوط الشمس . استنفرت عيناه ، تتلقى شواظ الغيظ .. تتناثر عش في صدره ..! انتفضت دموع .. انتظمت بعناد .. رمقته بنظرة تقطر ثلجا .. تراجع من الحجرة ببطء شديد .. شرده الحزن .

ـ لم يحدث هذا لي دائما ؟!

فتح القنوط التابوت .. يسجيه! الاوراق الصفراء تزكم انفاس النهر! تبيض العينان الخضراوان ! جلس الى طاولة تتقلقل ..! سقط القلم من يده . اعتصرت اصابعه وجهه المحتقن .. انشبها . توحش ضلع في اعماقه ..؟!

ـ انني امقته .. ليس ابي ! صفعة اخرى على وجهي واغادر البيت الى الابد ؟!

عندما وضعت يدها على كتفه احس بعبء ! انهزم لسانه الى حلقه يستر عقره .. انزوى السلحف في درعه .

احتدت ..!

ـ الن تغير تصرفاتك ؟ ألا تتحمل والدك المريض ؟!..

ـ دعيه ..!! افسديه اكثر مما هو فيه .

اعتصرتها كآبة .. رافقتها الى المطبخ .

مثلت امام عينيه محتويات حانوت ابيه .. يشيح عنها الزبائن .. أغلق عليها تلتهم نفسها ! أصدر السرير قرار قبوله لاجئا صحيا . حيرة ؟!. اسقطت فيها صرخة ؟!

ـ اسمع .. غط اخاك .. لاتنس أن تفيق مع الخباز !

لقيه عاريا ! تشبح الحمى وشوشة انفاسه . تطلع الى صورة على الحائط ؟!

ابتسمت له .. اتصل معها ..

« ايها الشقي .. تطعمني ؟! انا اكبر منك . انا الذي يجب عليه ان يطعمك » .

هده هاجس ابيه ! فرع اخضر تلوكه كف راع غضوب ضجر ..! احس بالظمأ ! استسلم مع الحمل النائم .



ارتمت في السرير . التمعت الاواني فوق الرف . انتفخت عروق يديها .. لا تزال ندية . لدغها الغطاء .. خرجت منه اعباء الصباح .. تضاجعها !! فرقتها عن أفراخها! لمق الظلام بقية قطرات الضوء ونفش ريشه كله .. ينز . تخوض في فضاء الجدران احلام خريفية ؟! صلبت عيناه على عقربي الساعة .. الخامسة ! لفظت اسنانها ضربات مغولية حفرت اذنيه ! يمرنه الكابوس اليومي ! انتزع السترة الحمراء ، تطوقها حروف الحب الانكليزية .. لحس عنها الطين اليابس .. تلمع .. تزركشه ! سبحت في خياله فراشة !!

داهم معبد اللقمة الناضجة ! النمل يتكاثف حول ذرة سكر .. يتكاثر .. يهرم .. يدفن حيا .

دقت الساعة ست دقات ! رائحة الارغفة تملأ الفراغ كله ! تنعجن به .. تشحن ابطه بالدفء .. نزعات شقاوة تحرضه للشغب .. ناوشتها نشوة عبقت فجأة ! التحم مقبض الدراجة بكفه .. يتقسى بينما النسمات القارسة تثخن جلده .. تبلوره ! يشتد ساعده !!

تنفس الفجر .. اللون الرمادي يورق ظلالا .. تعشش متسولة امام الابواب المغلقة !

سعال فظ يصعق عظام القبو .. يتفكك !! رمى عقب سيجارته في حوض المغسلة ..!

ـ جئت! اكثر الله خيرك ..لولاك لولاك لمتنا جوعا..اليس كذلك؟ اطفىء النور .. اسرافكم سيؤدي بي الى الجنون !

ابتلع كلماته على مضض .. اعتاد تفاقم نوبته في لحظات الصباح . تلهفت احاسيسه .. تبحث بين الاوراق عن ثمرة !

ـ ما هذا البيت ؟!

سرحت مشاعره في الفضاء .. انبثقت ومضة منسية في اعماقه .. تقترب منها عصافير زرقاء !

قطع الثلج تعوم فوق السطح ! تخلخلها همسات الاعماق .. تزجرها الى مسقط الشلال ..!

حان الافطار . تطفل طبق القش يمني ذاته : انا اضمحل اذا انا موجود !! تحلقوا حوله يتقاسمون محتوياته .. طأطأ يتلذذ بريق زيتونة دسمة .. شغلته بشغف ! تملص منها بسرعة .

عندما ثبتت عيناه عليه استدره شعورحنون : يعرج .. يتلمس الجدران .. انخفضت ! اتكأ عليها! لفظته البوابة .. نفض الصباح عنه شيئا ـ من غبار التعاسة .. يتعجله الدكان .. يؤمل الزبائن .. التأمت يداه في جيوبه .. ينحني نحو العمل ! تأمل شاهد الزور ..

لمح رفاقه ، انضم اليهم .. يتضاحكون .. انبجست في شفتيه المشلولتين ابتسامة . تعكزتا عليها برهة .. تتوسلان بقاءها .. غربت .. تحجرتا فجاة ! قطف طيف قلبه والقاه على الشرفة البعيدة . تسرح شعرها. نار هادئة التهبت في خلجاته .. انشق عنهم .. يتضرع !

« انظري الي .. انني بينهم .. ارتدي السترة الحمراء ؟!

انطلقوا .. ناداه صديقه :

ـ اسرع يا اخي .. بعد الانصراف تراها من مكان ابعد ..

يقهقهون.. هرول مرتبكا . تعثر! انزلق حذاؤه المطاطي السمج، عجزت ميزانية البيت عن مكافحته . التفت الى الوراء .. يخضه الخجل ؟!

الحمد لله .. لم تشاهدني .

هذا الشارع . تبرعت نسمة فتية .. مسحت بقايا العبث التي خلفها الشبان الصغار ، أرسلت خيوط الشمس شيئا من الدفء ..

ـ افتحوا كراريس الواجب ..من يعرف حل المسألة الاولى ؟

تخشبت انامله ! الوجوم يحنط المقعد الاصم !

« آه .. نسيت الكراس .. ماذا اقول له ؟ تكرر ذلك وسبق ان طردت من الحصة .. سأفصل الان ثلاثة ايام حتما ؟!»

هبط جفنه .. اندمل معتوامه.. تستعصي العملية الجراحية..الركن الهادىء يتكوم في ذيل الفصل . تقدم نحوه .. جاوره .. لمس كتفه؟

ـ اين كراس الواجب ؟ هل منعك سبب ما ؟ آمل الا يكون خطيرا ..

نبراته الهادئة نسمت في انسجته المتخثرة ! رفع عينيه اليه.. تنفضح همومه .. تكدست مظلة .. تسد اندفاع دموع . استبسل قلبه الغض .. عرف الحمام الزاجل طريقه ! اشرقت ابتسامة ..

ـ لا عليك ! ثقتي بك لن تهتز ابدا .. انا متأكد انك لن تنسى المرة القادمة ..

قطرة ندى سقطت على منقار عصفور ارهقه الطيران .. اختلجت نشوة في اوصاله .

ـ شكرا يا استاذ .. اعدك !!

خفقة عانقت دمعة .. هنأته .

سقت المدرسة جميع شجيرات الورد .. وزعت حصتها لهذا اليوم! تزدان الطرقات . فتحت الامهات احضانها تستقبل ودائعها ! يتغامزون .. تبتسم لهم الفراشات الجانب الاخر من الرصيف . اهملتهم بعضها .. تبحث نظراته عن بيضاء؟!!

اندلعت شرارة !! شرد نمر صغير! نصبت الشباك فجاة ! اندفع حد العربة .. مس مفاتيح « المدالية » ! طاحت في الفضاء .. ومضة ! انبهر جذب صديقه بعنف .. ولولت صيحات جلجلت الفضاء .؟!

ـ يا كلب يا ابن الكلب كنت خربت بيتي !!!

زمجرت قطعان العربات .. بددت شتائم السائق .. ما زال مرتجفا

سلامها

*

بعثت الي سلامها فحسبته ... ملآن من شوق الي كلاما
همسا خفيا لو تحس به التي ... حملته اشقتني اذى وخصاما:
اني احبك مثل ما احببتني ... وارى وصالك ما استطعت لزاما
لتضمني ضما اليك ويلتقي ... ثغري وثغرك فرحة وهياما
فتذوق من شفتي اعذب قبلة ... رشفا كما زق الحمام حماما
وتطيل في عيني نظرة شاعر ... ولهان يقبس منهما الالهاما
وترى جميع محاسني وتجسها ... جس الطبيب يعالج الاسقاما
في خلوة تسع الوجود محبة ... تحيا بها وتذوب في غراما
فلقد صبرت فكنت اوفى عاشق ... عشرين عاما في هواي وعاما
فارقب اذا امسى المساء زيارتي ... شوقا اليك ولن تكون لماما
اذكى هواي سلامها فكانني ... مما انتشيت به شربت مداما
وهم نعمت به واعقب حسرة ... وارى حياتي كلها اوهاما

حلب ـ ص ب ١٢٣٧ ... عمر ابو قوس

تتخطفه اظافر الهلع .. تهدجت حنجرته ..!
ـ لولا انت لكنت ..
ـ احمد الله ..
تحلقت العيون حوله .. لمحته الفراشة .؟! انكشف محاق فؤاده بدرا .. أورقت حبات القمح المنسية على طرف النافذة ..!
ـ السلام عليكم .. كيف حالك يابي .. ان شاء الله بخير .. اية مساعدة !
تفرسته عيناه .. اغرورقتا في اعماق وجوده ! اخضلتا .. برق فيهما شعاع اعتزاز وألم ..
« يا الهي ..! انه يكبر .؟! كيف لم اشعر بذلك ؟!!

اللاذقية ... طلال موصللي



الدكتور احمد الحفناوي

من تاريخ العلاقات بين دول الاسلام
الصراع بين "سنغاي" والمغرب

بقلم الدكتور احمد الحفناوي
مدرس التاريخ الاسلامي في جامعة المنوفية

* * *

يقطن السنغاي النيجر الاوسط ، وهو شعب زنجي لعب دورا هاما في تاريخ القارة الافريقية ، ويتكون من قبيلتين كبريين : السوركو وجيبي ، تعمل الاولى في صيد الاسماك وتعمل الاخرى في الزراعة .

وقد دخل الاسلام الى تلك البقاع في القرن الحادي عشر حينما اعتنقه ملوك « سنغاي » وكان تسربه الى الاهالي اثناء الحركة الاسلامية الضخمة التي نهض بها المرابطون .

وفيما بين عامي ١٢٣٥ م ، ١٣٣٥ م ضمت «سنغاي» الى امبراطورية « مالي » وما لبثت ان تحررت من سيادة هذه الامبراطورية ، بفضل نضال الشقيقين : « علي كلن » و « سلمن (سليمان) نار » ابني « زاياسبي » .

وقد اصبح « عليكلن » سلطانا على « سنغاي » وتسمى بسن ، اي : المحرر ـ وهو سن الاول ـ وبعد ان مات تولى اخوه « سلمن نار » ولم يجاوز ملكهم سنغاي وأحوازها ، اما « سن علي » الذي تولى سنة ٨٦٩ هـ ١٤٦٤ م فقد استمر حكمه حوالي ثمانية وعشرين عاما تمكن خلالها ان يحول دولته الصغيرة الى امبراطورية منيعة تسود منطقة واسعة في غربي افريقيا ، ويذكر السعدي : ان اولاده شقوا بطنه وأخرجوا احشاءه وملأوها عسلا لئلا تنتن (١) .

ولما تولى ابنه « ابو بكر »، انتقلت في ايامه السلطة من اسرة « زا » التي حكمت « سنغاي » حوالي ثمانية عشر قرنا الى اسرة « اسكيا الجليلة » التي بلغت سنغاي في ظلها أوج السيادة والازدهار ، وذلك بعد ان انتصر مؤسس هذه الاسرة « اسكيا محمد الكبير » على « سن ابي بكر » آخر سلاطين اسرة « زا » .

ونجح « اسكيا محمد الكبير » في ادارة شؤون هذه البلاد فعم العدل وانتشر الامن ودرب جيشا كبيرا لحماية الدولة ، وشجع على انشاء المدارس وصارت مدينة « تنبكتو » ـ في ايامه ـ منارا للعلم والثقافة ، واشتهر معهد سنكوري الديني وقدر مكانة رجال الدين والعلماء فقربهم اليه وكان ممن اجتذبهم العالم محمد المغيلي (٢) .

تتابعت السلطة ـ بعده ـ في ابنائه واخوته بالتتابع حتى جاء :

اسكيا الحاج محمد

في الاشهر الاولى لتوليه ، ارسل السلطان : المنصور السعدي (الذهبي) ملك المغرب ، رسوله اليه بهدايا نفيسة وابلغه التهنئة بالسلطة وقد رحب « اسكيا » بالرسول ترحيبا لائقا وقدم له اضعاف ما ارسله السلطان من الهدايا .

والواقع ان الرسول ومن معه لم يرسلهم المنصور قصد التهنئة ، وانما كان هناك غرض آخر لهذه السفارة ، وهو الوقوف على احوال «سنغاي» وقوتها ، وكان المنصور قد دبر خطة لغزو السودان بعد ارساله حملة تأديبية ضد واحتي : توات وجورارين ، وتبين له بعد نجاح مهمتها انه من الممكن ان يرسل حملة كبيرة عبر الصحراء ، ويذكر المؤرخ السعدي : « انه بمجرد عودة الرسل من سنغاي وردت الانباء ان السلطان بعث جيشا مؤلفا من عشرين الف رجل الى جنوب شرقي موريتانيا ، وامرهم بأخذ ما هنالك من البلدان على شاطىء البحر وغيرها حتى يصلوا الى « تنبكتو » (٣) فتخوف الناس ، ولكن شاءت الظروف ان يشتت الله ذلك الجيش بالجوع والعطش ورجع من بقي منهم الى المنصور بعد ان فشلت مهمتهم .

وبعد اشهر ارسل السلطان قائدا ومعه مجموعة من الرماة (حملة بنادق) الى مدينة « تغازا » وامره بأخذ اهلها ولكن الاهالي فروا من المدينة قبل وصولهم ، وذهب اعيانهم الى « اسكيا » وذكروا له ما حدث فاتفق معهم

على أن يمنعوا رفود الملح فوقف العمل واصبحت تغـــازا معطلة لا تعود بفائدة على أحد فما ان وصل القائد والرماة حتى وجدوا البلدة خالية ليس فيها الا نفر يسير ، فعادوا الى « مراكش » ، وبالتالي عاد العمل الى تغازا .

ولما بلغ المنصور ذلك طالب « سنغاي » بنصيب من الارباح : مثقال ذهب عن كل حمل من الملح ورفض «اسكيا» هذا الطلب باباء وشدة .

ونتيجة لذلك ، قوي عزم « المنصور » على غـــزو السودان وفتح « سنغاي » وفي اعقاب تلك الاحداث تحالف اخوة « اسكيا » عليه فخلعوه وولوا مكانه « محمد بن اسكيا داود » الذي لم تطل مدة حكمه اكثر من اربع سنـــوات وخمسة اشهر ، اذ توفي بعد هذه المدة القصيرة وتولى بعده :

اسكيا اسحاق بن اسكيا داود وفي ايامه نهض المنصور السعدي (الذهبي) بحملة عسكرية كبيرة لفتح سنغـــاي والاستيلاء على مواردها .

ذريعة « المنصور » وتهيئته الحملة

غضب « اسكيا اسحاق » على واحد من خدمه هو « ولـــد كرنفل » فأرسله الى « تغازا » ليسجن فيها ، ولكنـــه استطاع الفرار الى مراكش طالبا اللجوء الى سلطانها ..

وكان السلطان منصور السعدي (الذهبي) سلطان المغرب ـ آنذاك ـ في مدينة « فاس » فارسل اليه « ولد كرنفل » رسالة اخبره فيها بوصوله وبعض انباء « سنغاي » وحضه على الاستيلاء عليها .

فما كان من « المنصور » الا ان ارسل الى « اسكيا اسحاق » يطلب اليه ان يسلم له في خراج « تغازا » فرفض « اسحاق » هذا الطلب ورد عليه بجفاء (٩٩٨ هـ، ١٥٨٩م)

فجمع « المنصور » مجلس الشـــورى المؤلف من الوزراء والعلماء وزعماء القبائل ليستمد العون منه واوضح لاعضائه ما انتواه قائلا : « انه قرر الهجوم على سلطان « سنغاي » ليوحد صفوف المسلمين وبين لهم ان غزو تلـــك البـــلاد الثرية سيدعم البلاد ويقويها وفي ذلك كل الخير للامـــة الاسلامية ثم قال : ان « اسكيا » ليس فقط لا يتصف بفضائل الامراء الحميدة ، ولكنه لا ينتسب ايضا الى قبيلة قريش ، ولذلك لا يحق ان يحكم !

سمع المجتمعون ذلك فوجموا ثم ما لبثوا ان عارضوا واوضحوا اسباب معارضتهم التي تنحصر في : ان السودان يقع خلف صحراء قاسية وطرقه لا تصلح ومياهه لا تكفي، ثم ما من سلطان سابق على المنصور تعرض لمثل هـــذا المشروع الذي لا طائل منه ورجوه ان يتخذ من اسلافه هدى له وان يتبع نهجهم .

ولم يعجب « المنصور » هذا الموقف ، فرد عليهم :

« انني عزمت على منازلة امير السودان صاحب كاغـــو (جاغ) لتجتمع كلمة المسلمين ، ولان بلاد السودان كثيرة الخراج يتقوى بها جيش الاسلام .. الخ » .

فلما فرغ المنصور من كلامه سكت الحاضرون ، فقال لهم : « اسكتم استصوابا لرايي ام ظهر لكم خلاف ما ظهر لي » فأجاب كلهم بلسان واحد : ان ذلك راي عن الصواب منحرف وذلك لان بيننا وبين السودان مهامه فيحاء تقصر فيها الخطى وتحار فيها القطا وليس فيها ماء ولا كلأ ، فلا يتأتى السفر فيها وايضا فان المرابطين على قوتهم والموحدين على عظمتهم والمرينيين على شوكتهم لم تطمح همة واحد منهم لشيء من ذلك ، وحسبنا ان نقتفي اثر تلك الدول فان المتأخر لا يكون اعقل من الاول ، فعقـــب المنصور : « ان كل هذا غاية ما استضعفتم به امري فليس فيه حجة ولا ما يخدش فيما عندي فاما قولكم بيننا وبينها صحار ... فنحن نرى التجار على ضعفهم يشقون تلك المهامه في كل وقت واما قولكم : ان من قبلنا من الدول لم تطمح لذلك ، فاعلموا : ان المرابطين والموحدين صرفـــوا عنايتهم لغزو الاندلس ، كما ان المرينيين كانت غالب وقائعهم مع بني عبد الواد بتلمسان ، ونحن اليوم قد انسد عنـــا باب الاندلس باستيلاء العدو عليه جملة ، وانقطعت عنـــا حروب تلمسان باستيلاء الترك عليها ، ثم ان اهل تلـــك الدول لو أرادوا ما اردنا لصعب عليهم لان جيوشهم كانت فرسانا ورامحة ورماة ناشبة لم يكن عندهم هذا البـــارود وعساكر النار المرهبة ... واهل السودان ليس عندهم اليوم الا الرماح والسيوف وهي لا تقاوم هـــذه المدافـــع المستحدثة فقتالهم اسهل وحربهم ايسر والسودان انفـــع من افريقية فالاشتغال بها اولى من منازلة الترك لانه تعب كثير في نفع قليل ، وهذا جواب ما عرض لكم ، ولايحملنكم ترك الملوك الاول ذلك على استبعاد القريب ، فانه كم ترك الاول للآخر .

وبانتهاء « المنصور » من حديثه ، تفرق الجمع على ايفاد الحملة الى السودان ومتابعة المنصور في رايه .

الحملة المغربية

اعد المنصور حوالي اربعة آلاف مقاتل نصفهم من الاندلسيين الذين هاجروا الى المغرب عقب محنتهم في الاندلس ومـــن الترك الجزائريين الى جانب الف وخمسمائة من الخيالـــة المسلحين بالرماح وهم من المغاربة كما شملت الحملة عددا من المدافع الكبيرة والصغيرة محمولة على الابل ورجالها من اصل اوربي . وكان في صفوف الجيش ـ ايضا ـ سبعون مسيحيا من اسرى معركة القصر الكبير وثمانية آلاف من الابل والف جواد .

اسندت القيادة الى « جودر » وكان شابا اسبانيـــا من غرناطة ، وقع في أسر المغاربة وهو صغير وربي في القصر الملكي في مراكش ، وكان مع هذا القائد عدد آخر من القواد لمساعدته وقت اللزوم .

استعرض المنصور جيشه فأصابه الزهو ـ اذ كان مشهدا مهيبا ـ وامتلأ بشعور الامل في النصر .

سارت الحملة في ١٦ اكتوبر سنة ١٥٩٠ م ، ومرت شهور لم تصل انباء عنها ... وكانت قد تعرضت لكارثة بسبب الجوع والعطش نتج عنها فقد ثلثي الجند وبعد اربعة اشهر من مغادرة الحملة مراكش ، وصلت الى النيجر عند قرية « كوبر » ووقتها ادركت (سنغاي) نيات « المنصور » فأصدر « اسكيا اسحاق » امرا الى زعماء الصحراء بردم الآبار كيلا يستفيد منها العدو ، وعمد الاهالي الى التجمع والاستعداد مع « اسكيا » وعلى مسافة اربعة ايام من « جاغ » علم « جودر » ان « اسكيا » يقف على رأس رجاله للقتال فأرسل اليه يطلب منه التسليم انقاذا للبلاد من الدمار ، ولكنه رفض ، والتقى الجمعان في « توتنديبي » على بعد ٣٥ ميلا من جاغ .

وذكر محمود كعت : ان جيش سنغاي كان ١٨٠٠٠ فارس و٩٧٠٠ من المشاة (٤) . اما السعدي فقال : ان معظم جيش سنغاي كان من حملة القسي (٥) .

معركة توتديبي

هاجم الجيش المغربي جموع « سنغاي » بالنيران وقتل منهم كثيرين واسرع الفارون في عبور النهر الى « جرما »، ولم يستطع المغاربة مطاردتهم لعدم وجود سفن نهرية معهم، وهرب العديد من اهالي القرى المجاورة ، ولقي المغاربة ترحيبا من بعض التجار والمتعلمين عند دخول « جاغ » وكانت غالبية هؤلاء من اصل مغربي . ولم يعثر المغاربة على ما يستحق النهب اذ ان الاهالي كانوا قد حملوا معهم كل نفيس ، ولم يقع في ايديهم سوى مدفع له شارة برتغالية لم يستطع احد في « جاغ » استخدامه ، وكذلك تمثال للعذراء وصليب ... بل ان المدينة نفسها ـ التي وقعت في ايديهم ـ لم تكن سوى اكواخ وضيعة مشيدة باللبن والقش فيها كوخ « اسكيا » الذي لم يكن يمتاز عن اي كوخ في المدينة الا بسعته ، مما جعل افراد الجيش المغربي يحسون بخيبة امل شديدة نظرا لما عانوه من المتاعب والكوارث في طريقهم لهذه الحملة الخاسرة !

وعرض « اسكيا » الصلح على « جودر » على ان يقدم له مائة الف ذهب والف خادم ليعطيها « للمنصور » وان يعود الجيش الى مراكش ، فأرسل « جودر » يستشير « المنصور » وفي هذه الاثناء تعرض جيشه لوباء خطير، وكذلك الحيوان الذي لا يستطيع حراكا بدونه ، بل ووقع « جودر » نفسه مريضا ، وعاد « اسكيا » يعرض عليه الانسحاب الي « تنبكتو » حيث الطقس اكثر اعتدالا منه في « جاغ » ولرغبة « اسكيا » في انقاذ العاصمة ، ووعده ان يقدم له الجياد كي ييسر عليه هذا الانسحاب ، فقبل « جودر » هذا العرض ووصل الى « تنبكتو » التي لم يبق من اهلها الا القليل بزعامة القاضي « ابو حفص عمر » .

كانت « تنبكتو » عاصمة السودان الثقافية ، يعيش فيها العلماء وطلاب العلم والفقهاء الى جانب التجار الذين راوا ان يبقوا فيها ليحفظوا اموالهم .

ارسل جودر رسولا الى مراكش حاملا انباء انتصار الحملة في « توتديبي » ، فعمت الافراح البلاد، ولم يصل الى علم احد ما حدث للجيش بعد تلك المعركة ، فلما اطلع « المنصور » على شروط الصلح التي قدمها « اسكيا » ـ بعد ان وضحها رسول « جودر » ـ رفضها وثار ، ثم اشتدت ثورته حينما اخبره الرسول عن تعاسة البلاد وفقرها ، وسأل :

اذن من أين يتدفق الذهب الى المغرب طوال الاعوام؟

فلم يجب الرسول فاغتاظ المنصور وغضب غضبا شديدا وامر بعزل « جودر » وتولية « محمود بن زرقون » قائدا للحملة ، وطلب منه طرد « اسكيا اسحاق » من السودان .

ولكي يستطيع « المنصور » اكمال خطته ويحصل على دعم من شعبه ويجمع جيشا آخر يرسله الى السودان . لجأ الى تضليل الشعب ! فاذاع بيانا بالغ فيه بالانتصارات التي حققها جيشه واثار بذلك حماسة الجماهير المخدوعة التي لم تدر بما حل بالحملة من الكوارث !

وصل « ابن زرقون » الى « تنبكتو » بعد سبعة اسابيع ، وامر بقطع الاشجار الكبيرة فيها ليصنع منها بعض السفن (٦) وقد تحقق له ذلك ، واتجه بجيشه محاذيا النيجر ـ بعد ان ترك حامية صغيرة في المدينة ـ والتقى بجيش « سنغاي » عند « بنب » فأسرع رجال سنغاي بالفرار عبر النهر فتبعهم « ابن زرقون » بسفنه التي كان قد صنعها فور وصوله لهذا الغرض .

وسرعان ما انهزم جيش « سنغاي » ، ولجأ « اسكيا اسحاق » الى بعض القبائل ، التي ما لبثت ان ذبحته مع ابنه ورجاله ! وخلفه « محمد جاغ » رئيس الديوان الذي اتصل « بابن زرقون » وعرض عليه ان يمد جنوده بالطعام علامة على صدق نواياه فطلب منه « ابن زرقون » ان يقدم فروض الطاعة « للمنصور » فتقدم « محمد جاغ » مع قادة جيشه نحو معسكر « ابن زرقون » فدعاهم لتناول الطعام ، وما ان شرعوا في ذلك حتى قبض عليهم ، وسيقوا الى جودر في جاغ الذي امر بقتلهم !

وعين « جودر » من قبله اسكيا آخر يحكم سنغاي نائبا عن المنصور الا ان :

اسكيا نوح

برز وسط الظروف الحالكة التي كانت تمر بها سنغاي ، وسرعان ما بث الروح الوطني في صدور ابناء بلاده ، والف جيشا فتيا تسوده الحماسة لاستعادة الوطن من المعتدين واستطاع ان يفيد من الخصائص الطبيعية لبلاده مما مكنه بعد اربعة اعوام ان يكبد المغاربة الخسائر الفادحة .

فقد اضطرهم لملاحقته في اقليم « برجو » الكثيف الغابات ولم يكن للمغاربة دربة على القتال في مثل تلك

الغابات مما ادى الى استنزاف قدرتهم وهبوط معنوياتهم، وندمهم على ملاحقة « اسكيا نوح » في تلك البقاع .
وادرك ابن زرقون انه لا يمكنه اتمام مهمته ، وقدر « المنصور » موقف قائده ، ووافقه على سحب قواته (سنة ١٥٩٣ م) الى الشاطىء الايمن لنيجر تاركا حامية في « جاغ » .

نهاية سنغاي

مما لاشك فيه ان هزيمة جيش سنغاي في معركة تنديبي كانت ايذانا بتفكك عرى الروابط بين قبائل سنغاي التي خضعت لحكومة مركزية حازمة فسادت اعمال السلب والنهب ، وغزا الطوارق « تنبكتو » وانضموا للمغاربة ضد الاهالي المساكين !

وكان ابن زرقون قد دبر خطة لنهب تنبكتو بأن اعلن للاهالي انهم سيفتشون الدور للبحث عن السلاح وانه سوف يستثني من التفتيش دور « آل سيدي محمود » احد الرجال الصالحين وكان من قضاة « تنبكتو »السابقين فهرع الجميع يودعون ممتلكاتهم عنده .

فتشت الدور بقسوة ، وحشد الاهالي في فناء معهد سنكوري وطلب اليهم ان يقسموا بالولاء « للمنصور » واطلق سراحهم ثم جمع المتصلين « بسيدي محمود » واغلق ابواب المسجد عليهم وامر الجند بالاعتداء على دورهم فنهبوها نهبا منظما ، كما اعتدوا على النساء ! وذبحوا من اجتمع في المسجد عن آخرهم ، وجمع « ابن زرقون » قدراً كبيرا من الذهب ارسل منه نحو مائة الف مثقال الى « المنصور » كان هذا الحادث الذي لا يمكن وصفه بأقل من الخيانة والخسة سنة (١٥٩٢ م) ورد فعل ما قام به « ابو حفص عمر » ، من ارساله بعض رجاله الى المغرب ليبينوا للمنصور ما لحق بهم من ذل على أيدي جنوده فأبدى المنصور عطفه وطمأن رجال الوفد بأن ارسل معهم القائد « ابو اختيار » وامره بالعمل على تهدئة الاحوال ، ولكن لما وصل الوفد « تغازا » اتضح انهم خدعوا اذ ان المنصور كان قد أرسل ــ قبل رحيل الوفد من مراكش ــ اوامره بالقبض على اعيان وعلماء « تنبكتو » بصحبة افراد اسرهم وارسالهم الى المغرب ، وقد نفذت تلك الاوامر ، وحمل هؤلاء على السير في الصحراء حتى وصلوا الى مراكش ، بعد ما اصابهم من الاعياء وكان بينهم ابوالعباس احمد بابا فقيه تنبكتو وعالمها الكبير وفي اثناء الطريق سقط عن الجمل الذي كان يحمله فانكسرت رجله .

وبعد ان امر المنصور باطلاقه من السجن ، دخل عليه قصره فوجده قد اتخذ حجابا بينه وبين الناس وهو من وراء الستار يتكلم فقال الشيخ : قال الله تعالى : « وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحيا او من وراء حجاب » وانت تشبهت برب الارباب وان كانت لك حاجة في الكلام معنا فانزل الينا وارفع الحجاب عنا ، فنزل السلطان فقال له الشيخ : اي حاجة لك في نهب متاعي وتصفيدي من تنبكتو الى هنا حتى سقطت من على ظهر الجمل فانكسرت رجلي فقال له السلطان : « أردنا كي تجتمع الكلمة » فقال له الشيخ « فهلا جمعتها ... » (٧) .

وعلى الجملة فقد اساء حكام المغرب الى شعب سنغاي واذلوه مما جعل بعض الضباط المغاربة يتبرمون ويفرون سرا الى مراكش ليطلعوا رؤساءهم على حقائق الامور ، مما جعل المنصور يستبدل « ابن زرقون » بالقائد « منصور بن عبد الرحمن » الذي التقى « باسكيا نوح » وانتصر عليه وقتله عام (١٥٩٥ م) وبموته انتهت المقاومة المنظمة لسنغاي وبدا وكأن كل شيء سوف ينتهي ... ولكن هل رضي شعب سنغاي بتلك العاقبة الحزينة ؟

توفي السلطان المنصور في اغسطس سنة (١٦٠٣ م) وحاول ابناؤه الثلاثة كل منهم ان يتولى العرش ، وبعد معارك طاحنة تمكن زيدان الابن الاصغر ان يفوز به ، ورضي رجال الجيش في السودان هذا الفوز واضطرزيدان نظرا للاوضاع الداخلية في المغرب ان يدعو سليمان الى مراكش ــ وكان قد عينه المنصور حاكما على سنغاي واستطاع ان يعيد الامن والطاعة الى النفوس هناك ــ فعادت الفوضى من جديد ، وثار الطوارق والفولة وسنغاي ضد المغاربة ولما ساءت الاحوال قرر السلطان « زيدان » ان يتخلى نهائيا عن السودان سنة (١٦١٨) ويدفن مشروع والده الذي ذهب ضحيته حوالي ٢٣٫٠٠٠ الف قتيل من خيرة جيش المغرب .

وقد بقيت بعض جماعات من المغاربة على النيجرسادة انفسهم يختارون قادتهم ويعاملونهم حسب رغباتهم ، ونشأ جيل مختلط مغربي سوداني يدين بالتبعية الاسلامية لسلطان المغرب ، وتعاقب من هؤلاء على حكم تنبكتو حوالي مائة وثمانية وعشرين حاكما ، ثم تفككت اوصال البلاد السودانية وآل الحكم الى رجال القبائل وعم الظلم وانتشرت المجاعة عام ١٧١٦ م ودامت خمس سنوات .

وهكذا كان الحكم المغربي سببا في القضاء على « سنغاي » وعلى امنها ، ولم يستطع المغاربة ان يمدوا نفوذهم الى ما وراء المدن الرئيسية :

فهل حقق هذا الغزو أغراضه ؟

هل ضمت بلاد السودان الى المغرب ؟

هل انتقلت اليه ثروة سنغاي ؟

لا شيء من هذا !!

فقد خسر المغاربة عدة آلاف من خيرة رجالهم وبعثروا الاموال الطائلة « وربما كان الشيء الذي كسبته البلاد هو انه طبع طراز العمارة المغربي في بعض المدن الكبرى كما تأثرت بعض الصناعات المحلية كالخزف والازياء وألوان الطعام » (٨) .

بين شكّي ويقيني

كفكفي الدمع لست ارحم ما بك ... انت لا ترحمين في الحب ما بي
كم توقفت باكيا عند بابك ... وتمنمت ان تمري ببابي
ونظمت الحنين اثر غيابك ... هل تاثرت مرة بغيابي
وتمنيت نظرة من شبابك ... آه لو عاد ـ كي أثور ـ شبابي

تبدئين الصدود والهجرانا ... اي ذنب سوى هواك جنيت
وتعينين في بلائي الزمانا ... أجزائي الردى لاني هويت
وتثيرين حولي الطوفانا ... أتلوميني لاني اختفيت
كل غم يهون او هو هانا ... عند من ما له على الارض بيت

انت يا من رضيت منك انيني ... وشربت الضياء من مقلتيها
بين شكي هنا وبين يقيني ... يقف العمر مشرئبا اليها
واذا فاض بي اليها حنيني ... وتأملت قصتي في يديها
حرت فيما مضى وآتي السنين ... بين حبي لها وحقدي عليها

لا تذمي الرياح والانواء ... انت كل الرياح والانواء
عشت ارجوك في البلاء الدواء ... فاذا انت فجاة كل داء
وظننت الوداد زادا وماء ... فاذا بي من غير زاد وماء

وترى كان يسعد العشاقا ... بدموع المتيم الولهان
ويغني ـ فتعذب ـ الاشواقا ... نغم الشوق اعذب الالحان
الف الحب والحياة انطلاقا ... من زمان مقيد او مكان
لم يرق عمره ، وان كان راقا ... غيره في مذلة او هوان

عصيفرة ـ تعز
ص.ب ٤٨٠٦
علي محمد لقمان

وفي اوائل القرن التاسع عشر استعد السودان لغزو اجنبي جديد جاء من سواحل المحيط الاطلسي .

---

(١) السعدي : تاريخ السودان : نشر هوداس : باريس ص ٧ .

(٢) الشيخ محمد بن عبد القادر المغيلي من تلمسان ومن كبار علماء السودان الغربي اثناء القرن الخامس عشر ، وقد ألف رسالة بعنوان « التزامات الامير » قدمها الى حاكم كانو (شمال نيجيريا اليوم) وقد ترجمت الى الانجليزية وطبعت في بيروت سنة ١٩٣٢ م وتوفى المغيلي ١٥٠٤ م .

(٣) السعدي : تاريخ السودان : ص ١٢٠ .

(٤) محمود كعت : تاريخ الفتاش في اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس : ترجمة هوداش : باريس ١٩١٣ ص ١٠٢ .

(٥) السعدي : تاريخ السودان : ص ١٤٥ .

(٦) السعدي : تاريخ السودان : ص ١٦٠ .

(٧) د. عبد الرحمن زكي : تاريخ الدول الاسلامية السودانية في افريقيا الغربية ص ١٦٣ ، نقلا عن الافراني .

(٨) د. عبد الرحمن زكي : تاريخ الدول الاسلامية السودانية في افريقيا الغربية ص ١٦٨ .

احمد البهي الحفناوي
جامعة المنوفية ـ شبين الكوم

تحقيقات عرضيّة

بقلم الدكتور علي جواد الطاهر

* * *

(١)

المحمدون من الشعراء واشعارهم ـ لجمال الدين علي بن يوسف القفطي ، تحقيق رياض عبد الحميد مراد ، دمشق ، مطبوعات مجمع اللغة العربية ، مطبعة الحجاز ١٣٩٥ ـ ١٩٧٥ .

بذل المحقق جهدا ملحوظا . وتحدث في مقدمته عن المؤلف والكتاب وقال : « اعتمدت في تحقيق هذا الكتاب نسختين احداهما نسخة حيدر آباد : وهي النسخة الام ، والاصل الذي اتخذته اساسا ... وهي محفوظة في الخزانة الآصفية بحيدر آباد .. ولها فيلم مصور عنها في القاهرة وآخر في مكتبة مجمع اللغة العربية بدمشق لعله من الجامعة ... والناسخ هو القفطي نفسه . الثانية : نسخة باريز ناقصة .. مليئة بالتصحيفات والتحريفات والاخطاء .. »

الكلام وجيه والمقدمة قيمة ولو حوت فقرة واحدة اخرى لكانت كاملة ، ولدلت على النقصي والامانة أكثر مما دلت عليه . في هذه الفقرة ، يقول المحقق ان الكتاب (المحمدون من الشعراء واشعارهم ...) حقق قبله مرتين الاولى في باريس عملها حسن معمري (الجزائري) ونال بها الدكتوراه ، وقد اعتمد فيها على مخطوطة باريس وحدها. والثانية عملها محمد عبد الستار خان (الهندي) ونال بها درجة علمية (الدكتوراه) من الجامعة العثمانية بحيدر آباد الدكن وقد اعتمد على « المخطوطتين » : نسخة حيدر آباد .. ونسخة باريس . وقد صدر الكتاب في جزءين ١٩٦٦ ، ١٩٦٧ عن مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية

ونيط امر الاشراف على طبع تحقيق المعمري بالاستاذ حمد الجاسر صاحب « منشورات دار اليمامة » فراى الاستاذ الجاسر ان لا بد من اكمال التحقيق بالرجوع الى النسخة الآصفية ، فرجع .. وصدر التحقيق ببيروت ـ مطبعة المتني ويبدو ان كل ذلك تم سنة ١٣٩٠ ـ ١٩٧٠ .

اقول ان جهد الاستاذ رياض عبد الحميد مراد ملحوظ وقد نال به دبلوم الدراسات العليا من جامعة القديس يوسف في بيروت .. وكان يمكن ان يكون اكثر كمالا ودقة (وامانة) لو اشار ـ ولو في المقدمة ـ الى التحقيقين السابقين على عمله ، طبع الاول سنة ١٩٦٦ ـ ١٩٦٧ والثاني ١٩٧٠ .

(٢)

الترجمة الشخصية ـ الحلقة (٣) من الفن القصصي من سلسلة « فنون الادب العربي » التي تصدرها دار المعارف بمصر .

١ ـ يكتب على الحلقة من السلسلة : « يشترك في وضع هذه المجموعة لجنة من ادباء الاقطار العربية » .

واذا رجعت الى مفردات السلسلة وجدت الكثرة الكاثرة من المصريين وقد تجد غير مصري او لا تجد . فلم اذا هذا « الاعلان » . بلغت حلقات « فنون الادب العربي » اثنتين وعشرين حلقة لا تجد فيها تمثيلا لمؤلفين من « ادباء الاقطار العربية » .

٢ ـ لا تكتب السلسلة اسم المؤلف على غلاف الكتاب ولكنه تجده في ذيل المقدمة . ومقدمة كتاب « الترجمة الشخصية » مذيلة بالقاهرة في ٢٥ ابريل سنة ١٩٥٦ م ـ شوقي ضيف .

٣ ـ ص ٣٧ « ونفس كتابات الادباء في العصر العباسي كثيرا ما تتضمن اخبارهم وبعض وقائع حياتهم » ـ تركيب الجملة غير سليم .

٤ ـ ص ٤٤ « .. العماد الاصبهاني ، اودع ترجمته كتابه « البرق الشامي » وهو مفقود » ـ البرق الشامي غير مفقود ، وانما هو مخطوط (في سبعة مجلدات) ، ينظر زيدان ، الزركلي ...

٥ ـ ص ٩٣ « لما أزيلت الدولة الفاطمية نعاها (عمارة اليمني) غير مرة » . أي اكثر من مرة ، في اكثر من قصيدة واحدة . وتكرر الاستعمال ص١٢١ « احمد امين ... واشترك في ترجمة غير كتاب » ـ الذي نعرفه انه لم يشترك في الترجمة وانما اشترك في « التصنيف »

كما في « قصة الفلسفة اليونانية » و « قصة الفلسفة الحديثة » ويمكن ان نضيف اليهما قصة الادب في العالم . ولا شك في أن المعتمد الاول في نقل المعلومات الجاهزة عن المصادر الغربية (الانكليزية) هو زكي نجيب محمود الذي قبل ـ طوعا او كرها ـ ان يأتي اسمه تاليا لاحمد امين .

ولنتذكر ان هذه الكتب صدرت عن « لجنة التأليف والترجمة والنشر » التي راسها احمد امين طويلا (مدى ثلاثين عاما) وبنفوذ كبير ..

لقد تمنينا على الدكتور زكي نجيب محمود ان يطلعنا على « حظ » احمد امين من « التصانيف » التي صدرت وعليها اسماهما : احمد امين وزكي نجيب محمود ، لاننا نعلم قلة بضاعة « الاول » في مثل مادتها .. فهل يتفضل بالاجابة خدمة للحقيقة وربما لاحمد امين نفسه ؟!

٦ ـ ص ١١٠ « محمد كرد علي أديب سوريا وعالمها

الذي توفي منذ سنوات قريبة » وفي ص ١١٣ « توفي سنة ١٩٥٤ م » .

كان من الممكن الاكتفاء بواحدة يذكر فيها تاريخ الوفاة صريحا . هذا وان القول : « منذ سنوات .. » غير دقيق لان الكتاب مؤلف سنة ١٩٥٦ ويكون صحيحه منذ نحو من سنتين .

٧ ـ ص ١١٤ طه حسين « نراه .. مديرا لجامعة الاسكندرية » .

لم يكن طه حسين مديرا لجامعة الاسكندرية .

٨ ـ ص ١٠٥ ـ « تراجم حديثة » : علي مبارك ، محمد كرد علي ، طه حسين ، احمد امين.

كان من المناسب (جدا) ذكر احمد فارس الشدياق صاحب « الساق على الساق » ..

٩ ـ ضم الكتاب ـ على صغر حجمه ـ من المعلومات ما يصعب طريق جمعها على غير الدكتور شوقي ضيف .

(٢)

تاريخ الادب او حياة اللغة العربية ـ مجموع المحاضرات التي القاها بالجامعة المصرية حضرة الفاضل حفني بك ناصيف استاذ الادب بالجامعة المصرية ووكيل محكمة طنطا الاهلية . الكتاب الاول . الطبعة الثانية . مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٨ .

١ ـ لم تشر هذه الطبعة الى تاريخ الطبعة الاولى ، ولكن المقدمة فيها تشير الى انه القى المحاضرات « في سنتي ١٩٠٩ ـ ١٩١٠ » وهو التاريخ المثبت ايضا على راس الكتاب . ويذكره سركيس في « معجم المطبوعات » . وقال محمود غنيم في كتابه عن « حفني ناصيف » (القاهرة الدار المصرية ، سلسلة اعلام العرب ـ ٤٧ د. ت) ص ١٦٣ : « .. وقد طبعته جامعة القاهرة اخيرا في ثلاثة اجزاء .. » ولكنه لم يدل على انه راى هذه الاجزاء الثلاثة فلم يتعد في وصفه لمادة الكتاب ما جاء في هذه المطبوعة التي تتحدث عنه وهي ما وصف بانه « الكتاب الاول » . هذا الى ان غنيم لم يدرج الكتاب في قائمة مراجعه .

٢ ـ وتذكر المقدمة انه « لم يطبع من محاضراته الا هذا الكتاب .. ويخبرك المخضرمون الدين كانوا يواظبون على دروسه امثال الدكتور طه حسين ان محاضراته كانت تغص فيها بالمستمعين القاعة الكبرى للجامعة » .

وتذكر كذلك أنه كان يدرس تاريخ الادب « على النحو المتبع في الجامعات الاوروبية من البحث والاستقصاء»

٣ ـ الرجل عالم ، ونأسف اليوم اشد الاسف ان « تضيع محاضراته » الرائدة وهو يقول ص ٣ «تاريخ الادب او حياة اللغة العربية نوع من التاريخ الخاص يبين احوال اللغة العربية واستعمالاتها واطوارها المختلفة من بدء نشأتها الى الآن . ويدخل في ذلك وصف الكلام من شعر ونثر في كل عصر من عصور التاريخ وذكر نوابغ الشعراء والخطباء والكتاب والمؤلفين وتبيان تاثير كلامهم في من بعدهم وتأثرهم بمن قبلهم وما حولهم والموازنة بينهم والالمام بمؤلفاتهم..»

نأسف لما دل عليه هذا الجزء المطبوع من علم ودقة واخلاص وحب متزن للعرب والعربية .. نأسف ولا نيأس .

٤ ـ تحدث المؤلف عن « حروف اللغة العربية » .. ومما قال ص ٢٢ ـ ٢٥ :

« والثاء مخرجها بين طرف اللسان واطراف الثنايا فمن الغلط نطق العوام بها تاء في ثعبان وعثمان وثمر وثعلب ونطق بعض الخواص بها سينا في ثلاثة وثمانية وثم وثمود .

والجيم ادخل في وسط اللسان من الشين والياء فليس من الفصيح نطق اهل القاهرة بها قريبة من الكاف في نحو جمل وجميل ولا نطق المغاربة واهل الشام بها في نحو اجدر واجتمعوا .. ونطق بعض قرى مديرية جرجابها دالا خاصة كالدحش والدمل يعنون الجحش والجمل ...

والذال مخرجها من طرف اللسان واطراف الثنايا العليا ولا صفير فيها فمن الغلط نطق العوام بها دالا في ذيب وذهب وذاب وذيل وذمة ونطق بعض الخواص بها زايا في الذي وذات ومذكور وذراع وذنب ..

والضاد مستطيلة ومخرجها جانب اللسان لا طرفه فمن الغلط النطق بها دالا مفخمة كما في لسان المصريين عامتهم وخاصتهم وسبب الغلط اعطاؤها اطباقا اقوى كاطباق الطاء فتزول حينئذ حافة اللسان عن الاضراس ويصل راس اللسان الى الثنيتين العلويتين كما في الطاء مع ان اطباق الضاد اقل من الطاء وفيها استطالة ورخاوة بحيث يخرج معها نفس قليل ومن الغلط ايضا النطق بها كالظاء لان ذلك ينافي الاستطالة .. ونقل ابن جني ان من العرب من يجعل الضاد ظاء مطلقا .

والظاء مخرجها من طرف اللسان واطراف الثنايا العليا لا الثنايا نفسها وليس فيها صفير ، فمن الغلط نطق عامة المصريين بها زايا مفخمة ..

والقاف ليست من حروف الحلق فمن الخطأ نطق المصريين بها همزة كقولهم في (قبل) (ابل) .. وهي ايضا ادخل في اللسان والحنك من الكاف فالنطق بها مما بعد الكاف من اللسان والحنك مخالف للغة قريش كما يفعل اهل الصعيد والشرقية عندنا وان لم يعد ذلك لحنا .

.. واحذر من الوقوع (في الغلط) اذا كنت حريصا على اتباع سنة العرب » .

تدل هذه السطور على علم « ونباهة » واخلاص مبكر لإصلاح النطق المصري على وجه الخصوص .. ولو سار اساتذة الجامعة ـ او الجامعات ـ في هذه الطريق لامكن تحقيق شيء .

٥ ـ وتحدث عن ترتيب حروف الهجاء (ص٢٦ـ٢٧):

« ولها ثلاثة تراتيب » :

« الاول ـ الترتيب القديم .. وهو ترتيب ابجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ .. وللمغاربة فيها ترتيب يختلف قليلا عن هذها فيقولون ابجد هوز حطي كلمن صعفض قرست ثخذ ظغشن ..

والثاني ـ ترتيب مخارج الحروف بالابتداء من الصدر ذاهبا الى الشفتين وهو ء هـ ع ح غ خ ق ك ج ش ي ض ل ر ن ط د ت ص س ز ظ ذ ث ف ب م و وقد جرى على هذا الترتيب الخليل وسيبويه وابن سيدة في كتاب المحكم ولكن مع تساهل قليل فترتيب الخليل في كتابه العين هكذا ع ح هـ خ غ ق ك ج ش ض ص س ز ط د ت ظ ذ ث ر ل ن ف ب م و ا ي ..

والثالث ترتيب نصر بن عاصم ويحيى بن عمر العدواني في زمن عبد الملك بن مروان وهو الترتيب الذي عليه العمل الان في البلاد العربية وجرى عليه اصحاب الصحاح والقاموس ولسان العرب والمقصود منه ضم كل حرف الى ما يشبهه في الشكل فابتداء بالالف والباء لانهما اول الحروف في ترتيب ابجد .. (ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ و ي) .

ولكون ترتيب ابجد يختلف عند المغاربة عن ترتيبها عند المشارقة كان ترتيب الحروف عند المغاربة بعد ان ضم كل حرف الى ما يشابهه في الشكل هكذا : ا ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص ض ع غ ف ق س ش هـ و ي » .

٦ ـ وتحدث عن تاريخ الخط قبل الاسلام (ص ٣٤ ـ ٦٠) وبعد ظهور الاسلام (ص ٦١ ـ ٦٥) وعن الشكل والاعجام (ص ٦٦ ـ ٧٨) وفي « قواعد الشكل » (ص ٧٦ ـ ٨٤) قال :

« وقد اجمع الادباء على انهم يتركون الكتابة غفلا الا اذا كانوا يكتبون لانفسهم او لنظرائهم او كان المكتوب قصة ونحوها مما لا يعظم الخطر في اللحن فيه .

والمتفق عليه عندهم ان يشكلوا ما يشكل (بضم الياء وكسر الشين) ، كما قال ابن مجاهد : ينبغي الا يشكل الا ما يشكل ..

وقد ظهر في مصر جماعة من الجهلاء غرتهم مظاهر المدنية الغربية واستهوتهم زخارف الحضارة الافرنكية .. فجأر بعضهم بهجر العربية المضرية والاقتصار على المخاطبة والمكاتبة بالعامية، ونعق بعضهم باستبدال الحروف اللاتينية بالحروف العربية .. »

ثم ذكر امثلة من الخطوط العربية القديمة (٨٥ ـ ٩٧) و اصناف الاقلام العربية في صدر الاسلام (٩٧ ـ ١٠٠) و تاريخ تجويد الخط العربي (١٠١ ـ ١٠٦)

« .. الوزير ابو علي محمد بن مقلة المتوفي سنة ٣٢٨ .. ابو الحسن علي بن هلال البغدادي المعروف بابن البواب المتوفي سنة ٤١٣ .. الشيخة المحدثة الكاتبة شهدة بنت احمد الابري الدينوري المتوفاة ببغداد سنة ٥٧٤ .. ياقوت المستعصمي المتوفى سنة ٦٩٨ .. »

وتحدث عن الورق ، والمطبعة واختزال الكتابة ، وسعة الحروف العربية لجميع اللغات وهنا قال (ص١٢١):

« لم يتفق كتاب العرب على طريقة لتعديل الحروف والحركات حتى تكون صالحة لتصوير اللغات الاعجمية ، واضبط الطرائق وانفعها الطريقة التي أشار اليها العلامة عبد الرحمن بن خلدون المتوفي سنة ٨٠٦ هجرية وخلاصتها ان يكتب الحرف الاعجمي بحرف عربي ممتزج من الحرفين العربيين اللذين يكتنفان مخرج ذلك الحرف الاعجمي .. وقد جرى على هذه القاعدة الخلدونية من علماء هذا العصر الشيخ اليازجي واستعملها في مجلة الضياء الى آخر لحظة من حياته ، ونحن نوافقه عليها كل الموافقة .. غير اننا نخالفه في اربعة حروف (VPJG) اصطلح الفرس والترك على كتابتها بطريقة اخرى واشتهرت طريقتهم فيها بين كثير من كتاب العربية . فالاخذ بطريقتهم المشهورة اولى واقرب ، ولا سيما انهما الامتان العظيمتان اللتان تشاركان العرب في الكتابة بالحروف العربية ، واليك بيان الطريقة التي اخترناها بالتفصيل :

گ : للدلالة على حرف G بعد A وهو جيم اهل البحرين المستعملة في القاهرة .

ژ : للدلالة على حرف J الفرنسي وهو الجيم المستعملة على لسان السوريين والمغاربة .

پ : للدلالة على حرف P المعروف بالباء الفارسية.

ڤ : للدلالة على حرف V الذي بين الفاء والواو .

خ : للحرف الجرماني CH المنطوق به في جرمانيا بين الخاء والشين .

.. ولم نذكر في الحروف التي اخذناها عن الفرس والترك حرف چ لانه لا حاجة اليه لان الامتين المذكورتين ينطقان به (تش) وهما حرفان في الحقيقة تاء ساكنة وشين وهما موجودان في الحروف العربية الاصلية ، فاذا احتجنا لتصوير ما يدل عليه بحرف چ كتبنا تاء وشينا ، وقد اصطلح كتاب مصر وحدهم على استعمال هذا الحرف چ للدلالة على الحرف J الفرنسي اي جيم المغاربة بدل الحرف التركي ژ ، ولكن هذا الاصطلاح لا وجه له لانه مع خروجه عن القاعدة الخلدونية المضبوطة مخالف لاصطلاح الامتين .. اللتين تشاركاننا في استعمال الحروف العربية فالجري على اصطلاحهم اولى من الانفراد باصطلاح مخالف للقاعدة الاصلية .

ولا داعي لوضع حرف خاص بالجيم الانكليزية لانها كالجيم العربية الصحيحة » .

وهذا جهد آخر مبكر مخلص كان اللازم ان نتابع البحث فيه حتى نستقر على حال ، ولو فعلنا ذلك لتجنبنا

هذه الفوضى السائدة في هذه المواقف ولك ان تقرا ثلاثة كتب في ثلاثة اقطار : مصر ولبنان والعراق مثــلا لترى الاختلاف في مقابلة الـ G الانكليزية .. ويمكن ان تضيف الى ذلك ما يجري في المغرب العربي ..

مرة اخرى.. نحس بالاحترام الكبير نحو استاذ رائد ونتمنى لو تكتشف آثاره الضائعة ..

(٤)

المسرحية في الادب الانكليزي ــ لارديس نيكول ، ترجمة يوسف عبد المسيح ثروة ، بغداد ، وزارة الثقافة ١٩٨٠ .

١ ــ ص ٨ « .. المسرح .. روما .. سقطــت الامبراطورية في القرن الرابع »

الصحيح ، سقطت الامبراطورية في القرن الخامس ، فمن بديهيات الاعوام الفاصلة ، سقوط الامبراطوريـــة الرومانية سنة ٤٧٦ . وقد سألت الاستاذ المترجم فرجع الى الاصل الانكليزي فوجده كما هو في الترجمة اي القرن الرابع . فالخطأ ــ اذا ــ او السهو يعود الى المؤلـــف الانكليزي .

(٥)

من اعلام الادب الفرنسي ــ بقلم دكتور جلال حسن صادق، القاهرة ، المؤسسة المصرية ، الدار القومية ، سلسلة مذاهب وشخصيات ، مختارات الاذاعة والتلفزيون د. ت.

١ ــ حسنا فعل اذ ذكر مراجعه : « متخذين مــن جوستاف لانسون واناتول فرانس مرشدين لجولتنا في مجتمع الفكر » لان التأليف صعب علينا وربما غير معقول في مثل هذه الامور .

اخذ من لانسون كتابه في تاريخ الادب الفرنسي ولكنه لم يذكر تاريخ الطبعة التي اعتمد عليها ، واخذ من اناتول فرانس Le genie latin

واختار اعلامه من القرن الثامن عشر والتاسع عشر ديدرو ، بوفون ، سانت بف ، مدام دي ستال ، هيجو ، لساج ، شاتوبريان ، برناردان دي سان بيير .. وقد جاءوا لدى لانسون احسن كثيرا مما جاءوا هنا .. فضلا عن التصرف الخطأ .. ولعلك تشفق على القارىء العربي اذا كنت قرات ــ وتقرأ ــ كتاب لانسون . ثم ما قيمة كتاب اناتول فرانس في مثل هذا الباب ؟ اين افاد منه ؟ كـان المناسب أن يعرفنا قيمته والا فالذي نعرفه انه ليس من كتب اناتول فرانس المعدودة ، واقصى ما وجدناه في تعريفه انه « مجموعات مقدمات » ولم يكن اناتول فرانس معاصرا للاعلام الذين تحدث عنهم الكتاب!

ان في المكتبة الفرنسية عشرات الكتب التي يمكن ان يختار منها كتابا مساعدا آخر الى جوار كتاب لانسون في الحديث عن اعلام من الادب الفرنسي في القرنين الثامــن عشر والتاسع عشر .

٢ ــ ص ١٢ « راس ضخمة مستديرة ، تتكىء على كتفين عريضين » .

انث المذكر وذكر المؤنث ، اذ الصحيح : « راس ضخم .. كتفين عريضتين » .

وانث الرأس في غير هذا الموضع ، ص ٥١ « راســه كبيرة حمراء » .

٣ ــ ص ١٣ « الدوخان والتخدير » .

الدوخان ليست عربية (فصيحة) .

٤ ــ ص ٢٩ « ثلاث منابع » : ثلاثة منابع .

٥ ــ ص ٤١ « تاين » : الصحيح تين Taine

٦ ــ ص ٤٢ «طريقة التصنع التي تلجأ اليها «مريميه» في مسرحيته « كلارا جازيل » ..

.. التي لجأ اليها مريمه ..

٧ ــ ص ٤٨ « اشعار فرانسوا فيلون »

قد يكون اللفظ الاكثر شيوعا (وصحة) : فيون ــ بتشديد الياء(Villon)

٨ ــ ص ٥٠ « هي اكثر نضوجا من .. »

اكثر نضجا .

٩ ــ ص ٥١ « يتذكر هذه الستة اشهر »

.. ستة الاشهر هذه .

١٠ ــ ص ٥٤ « في احواله الثلاثة »

في احواله الثلاث ــ وقد استعمل الحال مؤنثة ص٩٨

١١ ــ ص ٢١ « صالونات » ديدرو .. ان ديدرو « في الصالون » او الثوي .. بتصيد فكرة جلية .. هو لا يرى اللوحة او التمثال بعينه ، بل بعواطفه الحــادة .. ان « صالونات » ديدرو قد انتجت علاوة على النقد الفـني ما يمكن ان نسميه (صحافة الفن) . الرسم . النحت ..»

١٢ ــ ص ٦٩ ، ١٣٧

لا وجه لترجمة « صالون » ديدرو بالثوي .. لان « الصالون » تعني النقد الفني النقد الذي كتبه ديدرو للمعارض الفنية من رسم ونحت ..

١٢ ــ ص ٦١ « مدام دي ستــال .. كونت لنفسها ثويا او (صالونا) .. يجتمع فيه مونيه . مالويه » . وتنظر ص ٦٩ ، ١٣٧ ، ٤٩ ..

ولا وجه لترجمة صالون مدام دي ستال .. بالثوي لانه يعني المنتدى الذي كان يلتقي به عندها الادباء والمفكرون والساسة ، ولم يكن ثويا !

١٣ ــ ص ٦١ « غادرت باريس والتجأت الى «كوبت» بالقرب من جنيف .. كوبت .. بنجامان كونستــان في صالونها .. ص ٦٢ : كوبت . كوبت .. ص ٦٩ « الرجال

السادة الذين يمكن ان يستقبلهم المرء في (ثوبه) .. مذهب فولتير : « فولتير بانيزم » وهو عدم التفريق بين الاديان ..

كوبت هذه بليدة كما قال قرب جنيف ولكنها لا تلفظ « كوبت » وانما كوبه لانها : COPPET والتاء لا تلفظ ولا ادري من اين اتى بمصطلح الـ « فولتيربانيزم » ؟!

١٤ — ص ٧٣ « هرمن ودوريتيه »

ترجم القصة الى العربية محمد عوض محمد هكذا : « هرمن ودروتيه » وقد نقلها عن الالمانية (١٩٣٣) وهي بالفرنسية : دوروتيه Dorothée

١٥ — ص ٧٩ — « فيكتور هيجو .. ولد في بسانسون Besançon سنة ١٨٠٢ » .

الصحيح : بزانسون .

١٦ — ص ٨٢ « لو كونت دي ليسل .. دي ليسل ص ٨٣ دي ليسل .. دي ليسل

الصحيح : لو كنت دي ليل (وقد يكون الاصح : لكونت دليل) والـ S الذي ثبته المؤلف العربي لا يلفظ بالفرنسية Le conte de Lisle

١٧ — ص ٨٣ « تيوفيل جوتيه المثال الشاعر »

كان تيوفيل جوتيه شاعرا وقاصا ومفكراً .. ولكنه لم يكن مثالا .. انه يصنع شعره كالمثال — اذا كان لا بد من ذكر كلمة « مثال » .

١٨ — ص ٩٠ « لقد تكلم المؤرخون عن شعر الحماس في سياق كلامهم عن « قصة العصور » . ولكن يجب ان نلاحظ هنا ان شعر الحماس الوارد في هذا الكتاب يبعد تماما عن ذلك اللون الذي صيغت به الالياذة او الاوديسة . واذا اردنا ان نقارنه بشعر حماسي آخر فلن نجد امامنا الا « الكوميديا المقدسة » .

لا موجب لاستعمال « شعر الحماس » بعد ان اوجدنا سليمان البستاني مصطلح « الملحمة » وقد سرنا عليه وكأنه ولد عربيا . وشعر الحماس غير الملحمة .. ثم اننا اعتدنا استعمال « الكوميديا الالهية » وبهذا الاسم ترجمها علماء عرب ثقات .

١٩ — ص ١٩ — ٢٠ « فن ديدرو .. اقرا كتابه « المراسلة » ..

لم يؤلف ديدرو كتابا باسم المراسلة .. ولكن لانسون يقول اقرا « المراسلة » ص ٧٤٦ من طبعة ١٩٥٢ بصدد الحديث عن « فنه » وهو يقصد قراءة ما كان يكتب من رسائل ..

٢٠ — ص ٤٩ « بعد ان نشر سانت بيف » اشعار جوزيف ديلورم استطاع ان يحتل مكانا في « ثوي الشعراء » وكان يجلس خلف فيني والرسام « بولانجيه » .. »

لا معنى لثوي هنا في مقابل « صالون » .. او Cénacle مما يترجم بمنتدى او ملتقى واي شيء اخر غير « الثوي » .. ومن هذه اللقاءات ، ومن اهمها ما كان يعقد في بيت فيكتور هيكو ، او لدى نوديه .. واقل ما يعني الثواء : الاقامة ، والثواء المنزل ومكان الاقامة (الطويلة) وما كان بيت فيكتور هيكو كذلك .

ولا غرو ان سمى المغاربة : الفندق والاوتيل : مثوى

٢١ — ص ٦٩ « الطبقة الراقية التي ينضم تحت لواءها الرجال .. السادة الذين يمكن ان يستقبلهم المرء في (ثوبه) » .

صحيح تحت لواءها : تحت لوائه .. والثوي هنا : البيت المنزل ولا موجب لهذا الولع بلفظة « ثوي » .

٢٢ — ص ١٤٠ « برناردان دي سان بيير .. في سنة ١٧٩٤ عين استاذا لعلم الاخلاق في المدرسة العليا « النورمال » وكانت قد انشئت حديثا .. ثم تزوج للمرة الثانية من فتاة .. تدعى « ديزيري بلفور » ..

النورمال : المعلمون ، المدرسة العليا للمعلمين ، دار المعلمين العالية .. علما ان لانسون لم يذكر « العليا » وانما قال : دار المعلمين (فقط) .

وربما كان صحيح : ديزري : ديزيره — والخطأ مطبعي .

٢٣ — ص ٩٨ — ٩٩ « ساج .. فيوكولوميبه .. »

الصحيح : فيوكولومبيه — بالباء والخطأ مطبعي .

٢٤ — ص ١٣٦ « تمسح دموعها بطرف مبدعتها » ..

الصحيح : تمسح .. ميدعتها — والخطأ مطبعي .

وفي القاموس : الميدع والميدعة .. الثوب المبتذل .

٢٥ — ص ١٣٩ « وفي سنة ١٧٨٨ وضع برناردان قصة صغيرة ، او مغزلة رائعة سماها « بول وفرجيني » هي قصة وليست صغيرة ، ولا موجب لكلمة « مغزلة » هذه .

(٦)

أبو القاسم كرو ، عبد الله شريط — شخصيات ادبية من المشرق والمغرب . بيروت ، منشورات دار مكتبة الحياة ، ط ، بيروت ١٩٦٦ — كانت الطبعة الاولى بتونس ١٩٥٨ .

١ — ص ٢٦ « الاديب كما قال عنه الجاحظ : « لا بد له ان يأخذ من كل شيء بطرف » ، ص ١٨٩ .

لم يقل ذلك الجاحظ ، وانما رواه عن العرب واهل اللسان « .. قالوا الادب هو حفظ اشعار العرب واخبارها والاخذ من كل علم بطرف يريدون من علوم اللسان او العلوم الشرعية » .. — المقدمة ، الفصل السادس والثلاثون .

٢ — ص ٢٨ « محمد بن سلام الجمحي صاحب كتاب طبقات فحول الشعراء وهو اول من شك في صحة انتساب الشعر الجاهلي الى عصره واصحابه ، وبقيت نظريته نائمة الى ان بعثها المستشرق الانكليزي مرقيلوث ثم تلقفها طه حسين واثار بها ضجة .. »

ا ـ الاصل في تسمية كتاب محمد بن سلام : طبقات الشعراء . ولكن الاستاذ محمود شاكر اجتهد في تسميته « بطبقات فحول الشعراء » وله في ذلك ادلة مقتنع بها .

ب ـ لم يكن ابن سلام اول من شك ، فقد سبقه رواة فيهم شيوخه ، ولكن عني بدراسة الشك ولعله اول من تحدث عنه بدقة ومنهج ..

ج ـ مرقليوث بالقاف يقصد مرجليوث المصرية ومرغليوث اللبنانية ..

٣ ـ ص ٤٠ ، هامش : «نذكر هنا ان الناقد محمد بن سلام الجمحي هو اول من شك في نسبة الشعر الجاهلي كله الى عصره » .

لم يكن اول من شك .. الخ .

٤ ـ ص ٧٨ « ان الدولة العباسية في العصر الثاني منها لم تبق عباسية الا بالاسم اما في واقعها فقد كانت كذلك في بغداد ولكنها بويهية في فارس .. »

هي بويهية كذلك في بغداد . فقد غلب البويهيون منذ ٣٣٤ هـ على الخلافة العباسية (في بغداد) ..

٥ ـ ص ١٠١ « المؤكد عند العلماء الثقاة .. »

صحيح الثقاة : الثقات (جمع ثقة) .

٦ ـ ص ١٢٨ « ومن شعر الامير الثاني ابو العباس يفخر بنفسه وحسبه :

اليس ابي وجـدي اوطـاني   وجـد ابي وعمـاي الرقابا

صحيح : اوطاني : اوطآني (بمد فوق الالف) .

٧ ـ ص ١٦٦ « ابن المقفع هو ابو محمد عبد الله روزبة بن دزويه .. ولد في بعض قرى فارس ، قيل انها قرية « جور » وهي مدينة « فيروزآباد » الحالية .

وردت جور بفتح الجيم والصحيح ضمها . في القاموس : جور مدينة فيروزابان وفي « معجم البلدان » جور (بالضم) مدينة بفارس بينها وبين شيراز عشرون فرسخا .. سماها عضد الدولة فيروزاباد .. »

اسم الاب : داذويه .

٨ ـ ص ١٩٩ « ويرى ابن قتيبة .. ان البلاغة في القول شعرا ونثرا ليس وقفا على عصر دون عصر .. »

لم يقل ذلك ابن قتيبة وانما قال : « لم يقصر الله العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن » الشعر والشعراء ـ المقدمة . ولا بد من التقيد بالنص .

٩ ـ ص ٢٠٨ « ولد احمد بن الحسين ابو الفضل الملقب ببديع الزمان ، في مدينة « همذان » الفارسية واليها ينسب . ولكنه نشأ وتعلم في مدينة الري ، ثم في نيسبور .

لم خصت همذان الفارسية دون غيرها وهل هناك همذان غير فارسية ؟

صحيح نيسبور : نيسابور .

١٠ ـ ص ٢٠٩ « ومن شعره في هذا الصدد ـ صدد ان بديع الزمان كان يفضل العرب على غيرهم من الامم » :

ألسنا الضاربين جزا عليكم   وان الجزية اولى بالذليل

صحيح جزا : جزى (منونة) جمع جزية ـ ومناسب ان يبدأ البيت بالهمزة (ألسنا ..) .. وليس في البيت تفضيل العرب على غيرهم من الامم ولكنه تفضيل المسلمين على غير المسلمين لان الجزية تؤخذ من غير المسلم وان كان عربيا ـ وهو « الذمي » .

١١ ـ ص ٢٢٠ « ابو نواس » ـ بتشديد الواو

الصحيح : ابو نواس بواو غير مشددة . والعامية لدينا هم الذين يشددون .

١٢ ـ ص ٢٣٠ « ولابي العتاهية ديوان اسمه الانوار الزاهية في ديوان ابي العتاهية »

ليس هذا الديوان الذي يجمع شعر ابي العتاهية كله وانما هو مجموع زهدياته . والاسم متأخر من صنع ناشره « اليسوعي » : « جمعه احد الاباء اليسوعيين نقلا عن

رواية النمري وكتب مشاهير الادباء .. » وهو الذي وضع لها اسم « الانوار الزاهية .. » بيروت ١٨٨٦ – ينظر للدكتور شكري فيصل : « ابو العتاهية – اشعاره واخباره» دمشق ١٩٦٥ .

١٣ – ص ٢٢٣ « ان ابا العتاهية كان .. يدعو الناس جهرة الى الاغراب عن الحياة »

كلمة « الاغراب » قلقة غير دقيقة ويمكن ان تحل محلها « العزوب » لان « الاغراب » هو الاتيان بشيء غريب .

١٤ – ص ٢٤٤ « ديكارت Descarte

الصحيح : Descartes

١٥ – ص ٢٥٨ « المتنبي .. قوله :

لا تشتري العبد الا والعصا معه ..

الصحيح : لا تشتر – بحذف الياء .

١٦ – ص ٢٨٣ « الحصري .. زهر الآداب .. مصادر الكتاب ..

لآلي الميكالي (الامير ابو الفضل النيسبوري ..)

نفيس قابوس (ابن وشمجير ..)

صحيح النيسبوري : النيسابوري ، وصحيح ابن وشمجير : ابن وشمكير (وله كتاب كمال البلاغة) .

١٧ – ص ٢٩٢ « علي بن عيسى الروماني »

صحيح الروماني : الرماني – بتشديد الميم .

(٧)

البير كامو – الغريب وقصص اخرى ، ترجمة عايدة مطرجي ادريس ، بيروت ، دار الآداب ، منشورات دار الآداب ، سلسلة القصص العالمية – ٢ ، الطبعة الثانية . كانون الاول ١٩٧٩ . والقصص الاخرى هي : الزوجة الخائنة ، الجاحد ، البكم ، الضيف ، جوناس ، الحجر الذي ينبت

١ – كان المنتظر من دار الآداب – وهي التي تعرف تقليد النشر الغربي وتستعمله احيانا – ان تذكر لنا تاريخ الطبعة الاولى ايضا .

٢ – ليس لالبير كامو كتاب بعنوان « الغريب وقصص اخرى » واذا كان له كتاب معروف جدا ، مترجم الى العربية اكثر من مرة هو « الغريب » ، فليس له كتاب بعنوان « قصص اخرى » .

٣ – ان الذي له كتاب يضم « قصصا » هي هذه «القصص الاخرى» الست صدر بعنوان L'EXIL ET LE ROYAUME (وقد ترجم من قبل العربية باسم « المنفى والملكوت » – ولتعدد الترجمات ما يسوغه – ولكنا نأمل من دار الآداب ان تحتفظ للقارىء العربي بصورة الاصل الفرنسي ، واذا كان لا بد من الجمع بين اثرين لم يجمعهما صاحبهما في كتاب واحد ، فليكن العنوان « الغريب وقصص المنفى والملكوت » او اي شيء يدل القارىء على اصل « القصص الاخرى » .

(٨)

دراسات في الادب الفرنسي – تاليف الدكتور علي درويش ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٢ .

١ – المؤلف عارف بالادب الفرنسي ، وكتابه يعكس ذلك . ولكن القارىء – وهو يرى من الاشارات والاحكام والاحالات ما يصعب ان يتهيأ لكاتب عربي – يتمنى لو ان المؤلف اشار الى المرجع الرئيس في كل من بحوثه عن موليير ، بوالو سنت ، بيف .. الخ .

٢ – ص ٨٧ «بلوتاك» : بلوتارك – وهو من الخطأ المطبعي .

٣ – ص ٨٨ « خرافات Phèdre .. فادر » : فدر

٤ – ص ١١٤ « سانت بيف اب النقد الادبي في فرنسا » : ابو النقد .

٥ – ص ١٧٢ « اتيح لموسيه ان يلتقي بصفوة الكتاب من الشبان سانت بيف وميرميه والاخين دنشان »

لا ادري لم نكتب بالعربية موسيه وميرميه بهذه «يه» الاخيرة وهي لا تؤخذ في الاصل MÉRIMÉE & MUSSET

الاخين دنشان : الاخوين ديشان DESCHAMPS وهما انتوني واميل .

٦ – ص ١٧٤ « موسيه .. ثارت اعصابه فجأة دون مبرر ، واذا به يصوب بلية من العاج الى مرآة « بالصالون » فيهشمها .. »

ما معنى « بلية » هذه لدى القارىء العربي؟ كان من الممكن ان نقول : « كرة » .

٧ – ص ١٧٧ « كلما زادت وطأة الالم كلما زاد سمو الانسان » ، وتنظر ص ١٧٨ – ١٧٩ .

الصحيح : كلما زادت وطأة الالم ، زاد سمو الانسان

٨ – « صديقه الحميم تاتيه »

لم هذه الـ « يه » ، انه تاتا .

(٩)

نظرة في منجد الآداب والعلوم – عبد الله كنون . القاهرة . معهد البحوث والدراسات العربية ١٩٧٢ (١٩٧٣)

١ – ص ١٣ « الاخطل .. اهتم في نشر مخطوطاته الاب انطون صالحي : والصحيح اهتم بنشر ديوانه بالباء .

صحيح صالحي : صالحاني .

علي جواد الطاهر
جامعة بغداد – كلية الآداب

بوح في الليـــل

عبد الكريم دندي

*

*

صديقتي ...
الف مرة تمنيت ان اكون نسرا
احملك تحت جناحي واجوب السماء كبرا

فتطوقين عنقي في رحلة الحنين
وحين يرتاح راسك على صدري
احس انفاسك الحرى تدع قوتي
فاطير واعلو صوب القمة الشماء
ابني لك عرزالا كبيرا .. كقلبي
انيقا .. نديا .. كحبي
آه ... يا صديقتي
لو كنت بحرا عميقا ، وفيه تسبحين
تصلصلين في القاع عن لؤلؤة ثمينة
رمتها ذات صباح شهرزاد
في حفلــة الميــلاد
فتبحثين ثم تبحثين
عن مشكاة أمل قبل الغروب
عن مركب عتيق بلا شراع
يحملك ـ ولو عارية ـ الى الشاطىء الامين
الشوق في عينيك صرخة احتجاج
يطرز الايــام بالاغــاني
فــلا تخافي
((العمر مهرجان))
وثغرك العنبي
يعيدني طفلا كلما حدثني بوح مساء
عن عالم بلا تخوم او شقاء
ضميني الى صدرك حين تستيقظ الكبرياء
فأناشمعة ، احترق في هذا الظلام
وحين تصرخين يا صديقتي :
ادفع كل ما أملك اليك
وأبعث النوارس والطيور
وبطاقة حب موقعة بمداد قلبي القاني
فيا .. صديقتي :
لن يمزق العذال بيرق اللقاء
ولن نكون الضحية المستكينة
فأنا وانت عاشقان رحلة الحياة ..
عـــابران ..
فلا تخافي الآن يا صديقتي
ورددي الســوال كل آن
((العمر .. مهرجان
وموسم يضج فيه الصوت والحنان
ونحن .. نحن العاشقان))

دمشـــق

تأريخ «السنابل» لأبي ماضي

بقلم الدكتور جورج ديمتري سليم

* * *

اشرت في كتابي « ايليا ابو ماضي ١٨٨٩ – ١٩٥٧ : دراسات عنه واشعاره المجهولة » (القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٧٧) عن اهمية تأريخ النصوص في الدراسات الادبية ، وحاولت يومئذ تأريخ قصائد ديوانين لابي ماضي : « ديوان ايليا ابو ماضي ، الجزء الثاني » (نيويورك ، مطبعة مرآة الغرب اليومية ، ١٩١٩) و « الجداول » (نيويورك ، مرآة الغرب ١٩٢٧) . واليوم سأحاول تأريخ قصائد ابي ماضي المجموعة في ديوانه « الخمائل » ، في طبعة الديوان الاولى الاصلية (نيويورك ، مطبعة السمير اليومية ، ١٩٤٠) . وقد اعتمدت في عملية التأريخ هذه على بعض المصادر اهمها مجلة « السمير » النيويوركية التي كان يصدرها ابو ماضي .

وسأعرض ترتيبين « للخمائل » : (١) ترتيبا ديوانيا يوضح تسلسل القصائد في الطبعة المذكورة ـ لان الطبعات الحديثة لهذا الديوان اصبح محتواها يختلف عن محتوى الطبعة الاصلية . وسأكتفي لهذا الغرض بذكر عناوين القصائد مسبوقة برقم مسلسل . (٢) ترتيبا زمنيا يسلسل القصائد حسب تاريخ نشرها او نظمها . ويشتمل كل مدخل من مداخل هذا الترتيب الزمني على البيانات الآتية : رقم مقام القصيدة في الديوان ، فعنوانها ، فرقم صفحتها مسبوقا بالحرف ص، فعدد ابياتها ملحقا بالحرف ب ثم بين قوسين بيان باسم النشرة الدورية التي نشرت القصيدة ، فتاريخ النشر ، فرقم الصفحة ، فعدد ابيات القصيدة ، فعنوانها ان كان مخالفا لعنوانها في الديوان .

هذا ، ويلاحظ ان ديوان « الخمائل » الاصلي يشتمل على ١٦٩٤ بيتا ، وان ما لم يؤرخ منه هنا يبلغ ستة في المائة من مجموع ابياته .

(ا) الترتيب الديواني

١ ـ المدخل ٢ ـ الشاعر والملك الجائر، ٣ ـ الدمعة الخرساء ، ٤ ـ الفيلسوف المجنح ، ٥ ـ ماء وطين ، ٦ ـ الابريق ، ٧ ـ امنية الاهة ، ٨ ـ ليل الاشواق ، ٩ ـ عش الجمال، ١٠ ـ وقائلة ١١ موميات، ١٢ ـ هدايا العيد ، ١٣ ـ الفراشة المحتضرة ، ١٤ ـ ابتسم، ١٥ ـ لو استطيع ، ١٦ ـ يا نفس، ١٧ ـ الكنار الصامت، ١٨ ـ لم يبق غير الكاس ١٩ ـ راي الاكثرية ، ٢٠ ـ كتابي ، ٢١ ـ كن بلسما ، ٢٢ ـ الخمر والدنيا ، ٢٣ ـ تأملات ، ٢٤ ـ لما ، ٢٥ ـ شاعر الشهور ، ٢٦ ـ الكاس الباقية : دمعة على جبران، ٢٧ ـ الشجاع، ٢٨ ـ ابي ٢٩ ـ ذكرى ٣٠ ـ يا جنتي ، ٣١ ـ الشاعر في السماء ، ٣٢ ـ كلوا واشربوا، ٣٣ ـ حديث موجة، ٣٤ ـ مجاهد، ٣٥ ـ الكريم ٣٦ ـ عبد : من اغاني الزنوج في اميركا ٣٧ ـ لبنان ، ٣٨ ـ ابسمي ، ٣٩ ـ انت والكاس ، ٤٠ ـ الشباب والحب ، ٤١ ـ الغابة المفقودة ، ٤٢ ـ ابو غازي ، ٤٣ ـ فلسطين ، ٤٤ ـ الغبطة فكرة ، ٤٥ ـ من انا ؟ ٤٦ ـ كمنجة الشوا، ٤٧ ـ اذا، ٤٨ ـ شبح، ٤٩ ـ الفتى الافضل ، ٥٠ ـ انا وابني ، ٥١ ـ عبد الله البستاني ٥٢ ـ كم تشتكي ، ٥٣ ـ فلوريدا ، ٥٤ ـ بين مد وجزر ، ٥٥ ـ مستشفى تل شيحا ، ٥٦ ـ أفاتحة ام ختام ؟ ، ٥٧ ـ الاسطورة الازلية .

(ب) الترتيب الزمني

٤٩ ـ الفتى الافضل ، ص ١٥١ ، ٩ ب (مرآة الغرب النيويوركية ٨ـ١٢ـ١٩١٦ ، ص ٤ ، ١١ ب انشودة وطنية اميركية) .

٣٣ ـ حديث موجة ، ص١٠٢، ٣٢ ب (مرآة الغرب ٩ـ١١ـ١٩٢٧ ، ص ٤، ٣١ب ، شاعر الالحان) .

٤٥ ـ من انا ؟ ص ١٣٨ ، ٣٢ ب (مرآة الغرب ٢٩ـ١١ـ١٩٢٧ ، ص ٤ ، ٣٧ ب، بدون عنوان) .

١٦ ـ يا نفس ، ص ٥٦ ، ٢٦ ب (السمير ١ـ٦ـ١٩٢٩ ، ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ، ٢٧ ب) .

١٧ ـ الكنار الصامت ص ٥٩ ، ٨ ب (السمير ١٥ـ٩ـ١٩٢٩ ، ص ٤٨٢ ، ٨ ب) .

٢٣ ـ تأملات ، ص ٧٧ ، ٤٥ ب (السمير ١٥ـ١٠ـ١٩٢٩، ص٥٧٧ـ٥٨٠، ٥١ب، انت الحياة بصمتها ومقالها)

٢٩ ـ ذكرى ص ٩٤ ، ١٧ ب (السمير ١ـ١١ـ١٩٢٩ ، ص ٦٥٨ ـ ٦٥٩ ، ٢٢ ب) .

١٢ ـ هدايا العيد ، ص ٤٣ ، ٢٢ ب (السمير ١ـ١ـ١٩٣٠ ، ص ٨٣٢ ـ ٨٣٣ ، ٢١ ب) .

٣٠ ـ يا جنتي ، ص ٩٦ ٧ ب (السمير ١٥ـ٢ـ١٩٣٠ ، ص ٩٩٦ ، ٧ ب) .

٥١ ـ عبد الله البستاني ، ص ١٥٤ ، ٤٥ ب (السمير ١٥ـ٤ـ١٩٣٠ ، ص ٢٧ ـ ٢٩ ، ٤٧ ب ، هذا فقير كان يعطي السراة) .

٢٥ ـ شاعر الشهور ، ص ٨٢ ، ٣٠ ب (السمير ١ـ٦ـ١٩٣٠ ، ص ١٥٤ ـ ١٥٥ ، ٢٩ ب) .

١٥ ـ لو استطيع ، ص ٥٥ ، ٤ ب (السمير ١٥ـ٦ـ١٩٣٠، ص٧٥٤ـ٧٥٦، ٢٦ب، الله قبل سيوفهم حامية).

٤٧ ـ اذا ، ص ١٤٥ ، ١٢ ب (السمير ٥ـ٩ـ١٩٣٠ ص ٥٣٢ ١٢ ب) .

١٣ ـ الفراشة المحتضرة ، ص ٤٥ ، ٤٢ ب (السمير ١ـ١٠ـ١٩٣٠، ص ٥٤٢ ـ ٥٤٤ ، ٤٢ ب، الفراشة التائهة)

٥ ـ ماء وطين ، ص ٢٠ ، ١٢ ب (السمير ١٥ـ١١ـ١٩٣٠ ، ص ٦٨٠ ، ١٢ ب) .

١٤ ـ ابتسم ، ص ٥٢ ٢١ ب (السمير ١٥ـ١٢

ـ١٩٣٠ ، ص ٧٧٦ ـ ٧٧٧ ، ٢١ ب) .

٢٨ ـ ابي ، ص ٩٠ ، ٤٠ ب (السمير ١٥ـ١ـ١٩٣١ ص ٨٧٥ـ٨٧٧ ، ٤٠ ب) .

٢٦ ـ الكأس الباقية : دمعة على جبران ، ص ٨٧، ١٥ ب (السمير ١ـ٥ـ١٩٣١ ، ص ٥٠ ـ ٥١ ، ١٥ ب ، الالاهة الجانية او الكأس الباقية : دمعة على جبران) .

٤٠ ـ الشباب والحب ، ص ١٢١ ، ١٦ ب (السمير ١٥ـ٥ـ١٩٣١ ، ص ١١٧ ـ ١١٨ ، ١٦ ب) .

٣٩ ـ انت والكأس ، ص ١١٦ ، ٦٣ ب (السمير ، ١٥ـ٦ـ١٩٣١ ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠٣ ، ٦٣ ب ، آفة الحب . حكاية حال) .

٣٥ ـ الكريم ، ص ١١٠ ، ٨ ب (السمير ١ـ٨ـ١٩٣١ ، ص ٣٦٢ ، ١٠ ب) .

٤١ ـ الغابة المفقودة ، ص ١٢٤ ، ٤٠ ب (السمير ١٥ـ١٠ـ١٩٣١ ، ص ٥٨٨ ـ ٥٩٠ ، ٤٠ ب) .

٣٧ ـ لبنان ، ص ١١٢ ، ٢٦ ب (السمير ١ـ١٢ـ١٩٣١ ، ص ٧٥٤ ـ ٧٥٦ ، ٢٦ ب ، الله قبل سيوفهم حاميه) .

٤٤ ـ الغبطة فكرة ، ص ١٣٥ ، ٣٢ ب (السمير ١٥ـ١٢ـ١٩٣١، ص ٧٦٩ـ٧٧١، ٣٢ب، انما الغبطة فكرة).

٩ ـ عش للجمال ، ص ٣٣ ، ١٠ ب (السمير ١ـ٨ـ١٩٣٢ ، ص ١ ، ١٠ ب) .

٣٢ ـ كلوا واشربوا ، ص ١٠٠ ، ٢٥ ب (السمير ١٥ـ٨ـ١٩٣٢ ، ص ١٤ ـ ١٥ ، ٢٥ ب ، كلوا واشربوا ايها الاغنياء) .

٣ ـ الدمعة الخرساء ، ص ١٢ ، ٥٧ ب (السمير ١٥ـ١٢ـ١٩٣٢ ، ص ٤ ـ ٧ ، ٥٩ ب) .

٢ ـ الشاعر والملك الجائر ، ص ٥ ، ٧٩ ب (السمير ١ـ٢ـ١٩٣٣ ، ص ٧ ـ ١٠ ، ٨٠ ب ، الشاعروالسلطان الجائر)

٣٦ ـ عبد : من اغاني الزنوج اميركا ، ص ١١١ ، ٩ ب (السمير ١ـ٣ـ١٩٣٣ ، ص ٣ ، ٩ ب ، اغنية سوداء : من اغاني الزنوج في اميركا) .

٥٧ ـ الاسطورة الازلية ، ١٧٧، ١٣٧ ب (السمير ١ـ٥ـ١٩٣٣ ، ص ١٢ ٢٥ ، ١٢٤ ب ، اسطورة الحياة او الحكاية الازلية) .

٥٦ ـ أفاتحة أم ختام ؟ ص ١٧٥ ، ٢٢ ب (الهدى النيويوركية ٢ـ٦ـ١٩٣٣ ، ص ٥ ، ٢٣ ب ، هل الردى فاتحة ام ختام ؟) .

٤٦ ـ كمنجة الشوا ، ص ١٤١ ، ٢٨ ب (السمير ١ـ٧ـ١٩٣٣ ، ص ٣٨ ـ ٤٠ ، ٣٠ ب ، بدون عنوان) .

٣١ ـ الشاعر في السماء ، ص ٩٧ ، ٣٧ ب (السمير ١ـ٩ـ١٩٣٣ ، ص ٣٣ـ٣٤ـ ، ٣٦ ب ، لكن سماء) .

١١ ـ موميات ، ص ٣٨ ، ٥٠ ب (السمير ١ـ١٠ـ١٩٣٣ ، ص ١٩ ـ ٢٣ ، ٥٠ ب) .

٤٢ ـ ابو غازي ، ص ١٢٨ ، ٤٠ ب (السمير ١ـ١١ـ١٩٣٣ ، ص ٢ـ٤ ، ٤١ ب) .

٣٨ ـ ابسمي ، ص ١١٥ ، ٦ ب (السمير ١٥ـ١٢ـ١٩٣٣ ، ص ١١ ، ٧ ب ، ابتسمي) .

١٠ ـ و قائلة ، ص ٣٥ ، ٢٦ ب (السمير ١٥ـ١٢ـ١٩٣٣ ، ص ٤٦ـ٤٧ ، ٣٢ ب، ليت الدمع لم يخلق) .

٢٧ ـ الشجــاع ، ص ٨٩ ، ٤ب (المورد الصافي البيروتية ، اذار (مارس) ١٩٣٤، ص ٨٥ ، ٤ ب) .

٤ ـ الفيلسوف المجنح ، ص ١٧ ، ٣١ ب (السمير ١٥ـ٥ـ١٩٣٤ ، ص ١٨ـ١٩ ، ٣٠ ب) .

٣٤ ـ مجاهد ، ص ١٠٥ ، ٤٩ ب (السمير ١ـ٦ـ١٩٣٤ ، ص ٤ـ٦ ، ٤٩ ب ، بئس المغير على البلاد الجار).

٤٨ ـ شبح ، ص ١٤٧ ، ٣٧ ب (السمير ١ـ٨ـ١٩٣٤ ، ص ٤ـ٥ ، ٤٠ ب ، انتم ديون لي على اميركا).

١٨ ـ لم يبق غير الكاس ، ص ٦٠ ، ٤٨ ب (السمير ١٥ـ٩ـ١٩٣٤، ص ٨ـ١٠، ٥٤ ب، وبلادنا متروكةللناس).

٢٠ ـ كتابي ، ص ٦٥ ، ٤٣ ب (السمير ١ـ٣ـ١٩٣٥ ، ص ١ـ٦ ، ٤٣ ب ، كتابي الكون لا صحف تتلى).

٧ ـ امنية الالهة ، ص ٢٣ ، ٣٨ ب (السمير ١٥ـ٤ـ١٩٣٥ ، ص ٥ـ٧ ، ٣٨ ب) .

٥٢ ـ كم تشتكي ، ص ١٥٨، ٣٣ ب (السمير ١٥ـ٨ـ١٩٣٥ ، ص ١ـ٣ ، ٣٤ ب ، ان الملاحة ملك من يتفهم).

٢١ ـ كن بلسما ، ص ٧٢ ، ٣٢ ب (السمير ١٥ـ١١ـ١٩٣٥ ، ص ١ـ٣ ، ٣٣ ب ، كن بلسما ان صار دهرك علقما) .

٦ ـ الابريق ، ص ٢١ ، ١٢ ب (السمير ١٥ـ٢ـ١٩٣٦ ، ص ٤ـ٥ ، ١٢ ب ، حوار مع ابريق) .

٥٠ ـ انا وابني ، ص ١٥٢ ، ٢٣ ب (الهدى ٢٧ـ٤ـ١٩٣٧ ، ص ٥ ، ٢٤ ب) .

٤٣ ـ فلسطين ، ص ١٣٢ ، ٣٤ ب (القاها ٥ـ١١ـ١٩٣٨ في بروكلن ، في حفلة الجامعة العربية ، بمناسبة يوم بلفور) .

٥٥ ـ مستشفى تل شيحا ، ص ١٧٢ ، ٣٨ ب (انشدها ٣٠ـ٧ـ١٩٣٩ في دترويت ميشيغن ، في مهرجان لجنة المستشفى) .

٥٤ ـ بين مد وجزر ، ص ١٦٦ ، ٤٠ ب (القاها عام ١٩٣٩ في نيويورك ، في حفلة تكريم جورج صيدح ، ونشرتها الرسالة القاهرية ٢٠ـ١١ـ١٩٣٩،ص٢١٦١، ٣٤ب

(ج) ما لم يـؤرخ

١ ـ المدخل ، ص ٣ ، ١٤ ب . ٨ ـ ليل الاشواق، ص ٢٨ ، ٣٠ ب . ١٩ ـ راي الاكثرية ، ص ٦٤ ، ٤ب. ٢٢ ـ الخمر والدنيا ، ص٧٥ ، ١٧ ب . ٢٤ ـ لا ، ص٨١، ٤ ب . ٥٣ ـ فلوريدا ، ص ١٦١ ، ٣٣ ب .

واشنطن **جورج ديمتري سليم**

همسة

*

فاطمة يوسف العلي

*

الكويـــــت

سيدي ، واميري الكبير !
عند الغروب ،
وموكب الطبيعة العذراء
يمعن في الرحيل وراء الافق الشاعري الرمادي
جلست فوق صخرة الايام
قبالة البحر ، استودعه همساتي
وتترنم شفتاي بنجوى النفس

ونجوى الفؤاد :
ليت لي جناحا عصفور غرد
فاطير اليك ..
وليت نجمة المساء تشع من عينيك
وليت هذا القلب
ليت هذا العمر مرتهن لديك

فانا يا بحر الاماني
وديعة بين يديك ..
وانا ، يا توام روحي
أتغنى بالجمال
فمحال ان يزول الحب
بل الف محال

ان تكن انت حبيبي
فانا كلي امتثال
أو يكن عمرك عمري
ولياليا وصال
فاسأل الشطآن عني
كي تناديك :
تعال !
هذه الدنيا وساد لأمانينا
فنم ...
اسمك الحلو ندائي
طعمه في كل فم !
انا من تهواك وجدا
تملأ الدنيا نغم

كنت لي يا دفء قلبي
كنت لي فجرا سعيدا
كلما ألقاك قربي
ونشيد الحب يبقى
طالما كنت النشيدا





وحيد الدين بهاء الدين

محمد النويهي كما عرفته

بقلم وحيد الدين بهاء الدين

* * *

منذ انجذابي الى اضواء الفكر والشعر في اواخر الاربعينات جعلت اقرا الكتب والمصنفات .. الدواوين والتراثيات ، قراءة مستوعب مستفيد ، وعلى نحو عجيب ، حتى باهظتني ضريبتها المؤداة ، وحرمتني متعا كثارا ..

لعل هذه المرحلة الخصيبة الحية من عمري الذي عشته ، وعانيت ما صاحبه من تفجر عاطفي وتفتح عقلي، هي التي دعت صديقا من الاصدقاء في مستهل الخمسينات للانبهار بمطالعة كتاب نقدي جديد ..

فاذا الكتاب هو « ثقافة الناقد الادبي » واذا مؤلفه هو الدكتور محمد محمد الدسوقي النويهي : الاستاذ المساعد في اللغة العربية ورئيس قسم اللغة العربية بكلية جردون التذكارية بالخرطوم والمحاضر الاول في اللغةالعربية بمعهد الدراسات الشرقية بجامعة لندن سابقا .

هنا طار ذهني بومضة من ومضاته الى ذلك المقال « اليتيم » الذي سبق ان قراته للنويهي عن المستشرقين على صفحات مجلة « الفصول » المصرية ، هذه التي رأس تحريرها محمد زكي عبد القادر .. في الاربعينات .

ما من سبيل الى الانكار ان قراءتي كتاب « ثقافة الناقد الادبي » يومذاك ثم مراجعتي اياه بين آونة واخرى، كانت بالقياس الي ، نقطة انطلاق نحو الموضوعية وعلم النفس الادبي ، واعتماد التصور العقلي والادراك الحسي للاشياء والمضامين ، التي تحف بنا ، فنقف عندها ونتعمقها متعصبين لها او عليها .

غير اني كانسان سريع التأثر بما يسمى الي ويتراءى لي من معان وافكار داعية للتسامي او للحركة او للاطلالة، ثم كناشيء سريع الاستجابة للدوافع الذاتية والقيم الانسانية سرعان ما دبجت رسالة تقييم وتعظيم الى النويهي ، منوها فيها بأهمية منهجه النقدي وارتباطه العضوي بواقعنا الثقافي المعاش ، ثم تأثيره في مسيرة الادب المعاصر ، في وقت سادت فيه فوضى المقاييس الفكرية والاراء النقدية واستفحل صراع الاتجاهات والاجيال ، حتى اخذ هذا الادب يكابد محنة ، متخبطا في ركام من المغالاة والادعاءات لا لشيء الا لغياب النقد العلمي الموجه المبني على التجرد والاصالة ثم الاحساس بالتبعة ..

والذي حصل ان الرسالة التي بعثت بها الى النويهي في صيف ١٩٥٧ وعلى عنوانه بالخرطوم ، رجعت الي دون ان تحقق المراد بعد تجوالها في ما اتيح لها من ارجاء شتى.

لئن لم تقيض لي الايام الاتصال الادبي بالنويهي، وقد بات علامة ظاهرة من علامات النقد المعاصر ، لدواع كانت خارج الارادة البشرية، فانما لم اتهاون في تسقط اخباره عن طريق اجهزة الاعلام والاصدقاء من جهة ، وفي تتبع انتاجه ما استطعت الى ذلك سبيلا من جهة اخرى ..

قرات في ما بعد كتابه « شخصية بشار » هذا الذي ادهشني بتحليلاته واستنتاجاته في معظم الاحوال ، يوشحها ذلك البيان العربي الذي يسيل اشراقا وحيوية ويرفض التواء وخللا ..

ومن ثم طالعت كتابه الآخر « نفسية ابي نواس » . وفيه توصل النويهي بما اوتي من ملكة نادرة ، في التحليل النفسي والتفسير الوجداني بشأن ابي نواس وفلسفته في الخمرة والجنس والحياة الى نتائج باهرة وطريقة لم يسبقه اليها ـ فيما اعرف ـ احد من الباحثين والنقاد المعاصرين وان كانت لبعض هؤلاء واولئك تحفظات على انتاج النويهي النقدي والادبي ، كالدكتورة بنت الشاطىء، التي أفضت الي بالحرف : ان النويهي مضطرب في كتابه « ثقافة الناقد الادبي » . والدكتور علي الزبيدي ، وقد ساق الي اكثر من مرة : ان مؤلفات النويهي انشائية الطابع . والدكتور طه حسين ، وهو واحد من اساتذة النويهي في الجامعة المصرية ـ الذي عقد عن كتاب «نفسية ابي نواس » فصلين (1) لا يخلوان من السحر الشديد

بآراء النويهي واحكامه تم الاشفاق منها عليه . عنـــوان اولهما « اسراف » وعنوان ثانيهما « بؤس ابي نواس » . اذ قال : « وكذلـك يستقيم للدكتور النويهي تفسير رائع خلاب لحياة ابي نواس وشعره على احدث المذاهب العلمية في التحليل النفسي وهو مذهب لا عيب فيه الا انه متكلف من اصله لانه لا يقوم على اساس متين من تاريخ ابي نواس او من شعره وانما يقوم على اساس من الفرض الذي عمد اليه المؤلف ليكون مبتكرا مجددا اسرف على نفسه واسرف على ابي نواس واسرف على قرائه آخر الامر » .

ثم يقول الدكتور طه حسين في فصله الثاني : « وما رايك في ان الدكتور النويهي قد ذهب بأبي نواس مذاهب لم تخطر له ولا لاحد من الذين عاصروه او جاءوا بعده ولم تخطر لاحد من الذين درسوه في العصر الحديث . فقد زعم ان نفسه قد ادركها ما يسميه الباحثون المحدثون مـــن اصحاب التحليل النفسي عقدة أوديب » (٢) .

على ترادف الايام بلغني ان النويهي يعمـل استاذا باحدى الجامعات المصرية ..

من هنا كتبت الى فائق رفائيل بطي ، وكان مدرس الصحافة حينذاك بالجامعة الامريكية بالقاهرة، ويستشرف آفاق الثقافة المعاصرة ، املا في موافاتي بعنوان النويهي، حاثا اياه على الاستفسار عنه والتطلع اليه ..

اثر ذلك كله .. فقد اجاب فائق بطي عن ما اردت من جانبي وعن ما اراده هو من قضايا ادبية وفكرية ملحة من جانبه ..

فاذا النويهي استاذ اللغة العربية في معهد الدراسات العربية العالية التابع لجامعة الدول العربية ، بشـارع قصر العيني بالقاهرة ..

هكذا قيض لي المناخ الفكري والنفسي ، فبعثت الى النويهي برسالة مكثفة ، مرفقا بها الرسالة السابقة ، وقد احتفظت بها للذكرى بعد اعادتها الي من كلية الخرطـوم الجامعية ..

استقر جواب النويهي المؤرخ بـ ١٨-١١-١٩٥٧ بين يدي .. وفيه يقول :

« وصلتني رسالتاك الكريمتان ولا اظنني استطيع ان اصف لك مقدار سعادتي وتأثري وشكراني لما حفلتا به من العاطفة النبيلة والتقدير السخي. اذا كانت كتبي المتواضعة تثير مثل هذا الاعجاب في نفسك فان تكرمك بالكتابة الي على غير معرفة شخصية وتجشمك ما تجشمت من المتاعب يدلان اولا على طيب معدنك ونقاء خلقك ، فهي شهادة لك لا لكتبي . بارك الله فيك واكثر بيننا من امثالك ممـــن يتعشقون الادب ويخلصون في حبه ويضحون في سبيـله. اني ممتن اعمق الامتنان » .

ثم يحاول النويهي في رسالته هذه وعلى طريقتـــه الخاصة في الربط بين الواقع الادبي والدافع النفسي ، ان يجد علاقة مشتركة ظاهرة بين اتصالي الفكري به واتصال ادباء عراقيين آخرين بـــه ايضا كعبد الرحيم محمد علي وغالب الناهي .. هذين اللذين لم اكن اعرفهما يومذاك . حيث يستطرد : « بالعراق المجيد عدد من الاخوان الكرام يراسلونني منذ قراوا كتبي ودعاهم حب الادب الى الكتابة الي وغمري بتشجيعهم وتقديرهم . منهم الاستاذ عبدالرحيم محمد علي بالنجف الاشرف والاستاذ غالب الناهي بمعقل. فحيا الله هذا الشعب العربي العظيم الذي ينبت امثـــال هؤلاء المخلصين » ..

حتى اذا انهى الي بغيته ، انطلق يسوق كلامه : « قد صدر لي في الشهر الماضي كتاب « الاتجاهات الشعرية في السودان » ولقي تقديرا طيبا في بعض الصحف المصرية وسيسرني كثيرا ان ارسل اليك نسخة منه » .

وادركني كتابه هذا المهدى الي ..

اذا كان النويهي قد سبق له ان تولى القاء محاضرات في الادب العربي والنقد بجامعة لندن ثم بجامعة الخرطوم ، فانه ازمع من كل قلبه على الاضطلاع بمثل هذه المهمـــة الايجابية بكلية الاداب بالعراق ، وذلك قبل ثورة الرابـــع عشر من تموز ١٩٥٨ ، لينتفع بعلمه الطلبة الجامعيـــون ، وليتخرج على يده نخبة من النقاد والباحثين ..

الا ان الحكومة العراقية ، في ذلك الحكم الملكي ، لم تستجب لرغبة النويهي ومبادرته ، ولم تقـــدر منزلته الادبية ، بل اعتذرت اليه لسبب لا وجود له ، على كثـرة ترحيبها ببعض الاجانب من الغربيين الذين طالما حملـوا الى طلابنا وطالباتنا الزقوم والسموم ، دليلا على عدائهم لنا، ورمزا لتشقيهم منا .

وبنوه النويهي بذلك بما ينم على شيء من اسى : « كانت امنيتي الكبرى ان اقـــدم الى العراق كي احظى بمقابلة هؤلاء الاصدقاء النبلاء ولكن يؤسفني ان الحكومـــة العراقية ردت معتذرة بان ليس لديها منصب يناسب لي في هذه الايام . ولعل المستقبل يحقق الامل فأسعـد بلقائك الشخصي ايها الاخ الكريم (٣) .

في عام ١٩٥٨ قرات كتابه الجديد : « طبيعة الفــن ومسؤولية الفنان » بارتياح واهتمام ..

واذا ما مر عام آخر ، حتى وجدتني وانـا ببغـداد في رحلة ، اقف على كتاب آخر له يحمل عنوان : « عنصر الصدق في الادب » فأقراه وانقل متعته وروعته الى مسمع صديقي الشاعر الوجداني : حافظ جميل ، الذي لم يلبث ان رغب فيه هو الآخر ، فاهديته بكل تحية ومحبة .

ومن ثم انقطعت عني اخبار النويهي .. وان كنت من جانبي اتابع نشاطه الادبي المجدد المركز . لا نتكاتب ولا نتبادل التحايا العابرة ولو على سبيل المجاملة التي تعودها الناس ، ورأوها من ضرورات الحياة لا لشيء الا لانشغال كل منا بمطالبه الملحة الآخـــذة باسباب وجوده : فكرا واحساسا .

لكن ذات يوم من ايام ١٩٦٤ باغتني النويهي بنسخة هدية من كتابه الصادر اخيرا عن « قضية الشعر الجديد ».

في منتصف الستينات وقد استقررت ببغداد ، صدرت لي بعض الكتب ، فرايتني اتذكر النويهي الصديق بسالف مكارمه وزاخر مشاعره ، المتمثلة في اهدائه بعضا من مؤلفاته الي .. اذ ارسلت اليه بكتابي الاخيرين : «اعلام من الادب التركي » و « من الادب العربي الحديث » هدية مقرونة برسالة وفاء واعزاز .

وما كنت اقدر ان ما فعلته يهزه من أعماقه ، واذا به كتلة من غبطة روحية وعقلية ، سرعان ما اجاب عن ذلك كله حروفا وهاجة على القرطاس ، فيقول في رسالته المؤرخة بالرابع من اذار عام ١٩٦٧ : وكم اسعدني ان اتلقى رسالتك خصوصا بعدطول انقطاع . احمد الله على سلامتك وارجو ان تكون في اطيب صحة واسعد حال . شكرا عميقاً ايها الصديق على مشاعرك السامية وكم اقدر ما فيك من وفاء كما اشكرك على هديتك النفيسة التي وصلت هذا الصباح وسأستمتع بقراءة الكتابين في اقرب فرصة ..

ثم لم يدع الفرصة ، وقد انتهزها على نحو طبيعي فاستطرد يسوق قائلا : « معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة الدول العربية يطبع لي الآن كتاباً بعنوان: « وظيفة الادب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي » وسيسعدني ان ارسل اليك نسخة منه فور خروجه من المطبعة » ..

وما هي الا ايام حتى ادركني كتابه هذا الذي يكشف عن منهجه النقدي ومنزعه الفكري في مجالات الثقافة الادبية والانسانية ، المتأثرة بالمذاهب الشعرية المعاصرة ، والتيارات الحضارية المتجددة السائدة في ديار الغرب والزاحفة نحو الشرق والوطن العربي ، حتى لا تكر منه ذلك حماة الثقافة العربية الاسلامية ودعاة التراث القديم .

ثم ظهر للنويهي كتاب ضخم في جزءين عنوانه : « الشعر الجاهلي » اذ درس هذا الشعر دراسة جديدة جادة مبنية على ارهاصات من المنهج التاريخي والتحليل النفسي ، واهداه وفاء واعترافا بالصنيع الى استاذه الدكتور طه حسين عميد الادب العربي ، بصفته الرائد المجلي الذي كان له موقف محدد وراي شجاع في « الشعر الجاهلي » منذ منتصف عشرينات هذا القرن .

كان النويهي بسبب من تعصبه للشعر الجديد وايمانه به ، سيء الظن بشعر المهجر ، يقسو عليه في احكامه وبحوثه ، حاملا على اصحابه الذين يسميهم « مقلدين » . ثم لا يتردد في التنديد بغيرة من النقاد ونعته بالجهل ، اذا ما عد هذا الشعر مبدعا ملهما منتزعا من الحياة بكل روافدها وآفاقها ..

ومن ذلك ما نشره النويهي على صفحات مجلة « الآداب » اللبنانية ، في مطالع الستينات ، مسفها آراء الدكتور محمد مندور ، لمجرد اعجابه بالشعر المهجري المهموس ..

وكان من الطبيعي ان يتضايق شعراء المهجر وادباؤه من مثل هذا النقد « المغرض » وغيره لسبب أو لآخر .

ذكرت مجلة « المضحك المبكي » (٤) : ان ثلاثة من شعراء المهجر وهم يمثلون ثلاث دول عربية : مصر ، لبنان، سوريا ، خرجوا ذات يوم الى شاطىء سانتاندر باسبانيا تسرية عن معاناة النهوض ، وتزجية لعطلة عيد الفصح .. فوجدوها فرصة سانحة ليضعوا النويهي وقد قرأوا نقده ورأيه على « محنة التجريح بالشعر الفصيح » ولو على الرمال .. فانبرى المصري :

كم ناقد في مصر نال الدكتورة
ولم يكن اهلا لغير البيطرة
زيحوه عنا ، قد شبعنا بهورة

واضاف اللبناني قائلا :

مندور كان الناقد المذواقة
مختبرا بالصدق والصداقة
اما « النويهي » فهو هش الطاقة
تجسدت في نقده الحماقة

حتى عقب الشاعر السوري ــ ولعله جورج صيدح بقوله :

استاذنا « النواهة » النقادة
قد منحته قبرص الشهادة
فاصبح السفير فوق العادة
لجنسه يروج استيراده
في بلد يدكتر البلادة

زرت القاهرة بعد احد عشر شهرا من ذلك التاريخ زيارة لا انساها ما حييت .

لقد كان يسعدني ايما اسعاد رؤية النويهي على القرب بعد ملاقاتي المتكررة به على صفحات الكتب والمجلات والرسائل المتبادلة ..

في صباح يوم الثلاثاء : السادس من شباط ١٩٦٨ جاءني صديقي طيب الذكر والاثر وديع فلسطين ، فأقلني بسيارته الى الجامعة الامريكية حيث يعمل النويهي بها استاذا للادب والنقد ورئيسا لهيئة التدريس .

فاذا ما ادركنا استعلامات الجامعة ، حيث سعت نحونا حسناء فاتنة ما فتيء الوديع يذكرني بها لانها اوشكت ان تخلب لبه ، مرحبة بنا ، ثم مفضية الينا ببشاشة ، بعد وعي ما جئنا من اجله .

ــ أن الدكتور النويهي منتدب للتدريس بجامعة برستن بأميركا !

بصمت ودلالة تواشجت نظراتنا ..

وحسما للموقف ، لم تتردد السكرتيرة الحسناء في انتزاع بطاقة بيضاء من بين مجموعة كبيرة استقرت كالتل قدامها عليها عنوان النويهي الكامل ، ما عتم الوديع ان نقله على وريقة ..

عدنا آسفين على عدم لقائنا بالنويهي لغيابه .. وشاكرين لهذه الحسناء حسن استقبالها وتصرفها معنا .

في اواخر شهر اذار عام ١٩٧١ طالعت مصادفة في بعض الصحف البغدادية خبر قدوم النويهي الى بغداد مدعوا من وزارة الاعلام للاسهام في مهرجان المربد الشعري هذا الذي تقرر انعقاده بالبصرة من الواحد من نيسان حتى السادس منه .

كان لا مندوحة عن مهاتفته قبل الذهاب اليه ضمانا لوجوده وحرصا على راحته .

في مساء الاثنين التاسع والعشرين من اذار استقبلني النويهي بفندق بغداد بحفاوة ومسرة .

كان الحديث معه مستطردا وذا شجون .. عرضنا فيه شريطا من الذكريات الادبية على مدى الفائتات من الايام والاعوام ..

تذكارا لمودة متجددة وإعرابا عن لقائنا ، وقد سجله القدر في لوح الوجود ، اهديته ثلاثة من كتبي الاخيرة الجديدة : « شخصيات من الادب المعاصر » و « في الادب والحياة » و « نظرات في الكتب » فتقبلها ممتنا معتزا واعدا اياي بقراءتها حينما يؤوب مدركا داره ..

وانقضى وقت .. ثم رايت من الاحجى ان ادعه للاخرين من ادباء وشعراء ، وقد جاؤوا للتعرف اليه ، وحرصوا على التحدث معه ، واستعجلوا الافادة منه .

حين اقيمت الجلسة الشعرية الاولى لمهرجان المربد في حدائق جزيرة السندباد بالبصرة في اليوم الثاني من نيسان ، دعي النويهي لتقييم القصائد التي القاها الشعراء: محمد مهدي الجواهري ، سليمان العيسى ، احمد عبد المعطي حجازي ، فؤاد رفقة ، حسيب الشيخ جعفر .

ويبدو مما قراته في صحيفة « المربد » وليس لدي اي نص يعتمد عليه ـ ان النويهي انتقد الشعراء ولا سيما الجواهري انتقادا حادا غير منتظر ، لتعصبه للشعر الحر الجديد ، تعصبه على العمودي القديم منه ، من ما اثار ضجة واصداء وردود فعل شديدة بين صفوف معظم الحاضرين والمدعوين .

من هنا هاجم بعضهم النويهي ، سائقا اليه اللوم والاعتراض لانه ـ كما ورد في بعض اعداد صحيفة المربد تحامل على الجواهري وخرج عن جادة الموضوعية ، بينما وقف البعض الآخر ، من آرائه واحكامه موقفا وسطا ، في حين أيده غير هذا وذاك كل التأييد .

اما النويهي نفسه فعلى ما يظهر آثر السلامة فلم يلق بالا لهذا الضجيج العجيج الذي جعل يرتفع من حوله، لا لشيء الا لانه قال كلمته ومشى عملا بفلسفة امين الريحاني ..

لكن سكوته مرفوض في قناعتي .. وكان ينبغي له ان يدافع عن الحكم الادبي الذي اعلنه ، والموقف الذي اتخذه بالرد المنطقي العلمي ، على المتصدين له ، والمحتجين عليه .

مع هذا فالنويهي بعيد عودتـه من البصرة ، وفي صبيحة الخميس : الثامن من نيسان ، القى محاضرة عن « الشعر العربي » في قاعة كلية الاداب بدعوة من بعض المحافل العلمية ، حضرها مريدوه ، والمختصون من الاساتذة وبعض الطلبة الجامعيين .

في مساء اليوم ذاته كنت على موعد مع النويهي ، فقصدته ومعي الاخ الاستاذ هلال ناجي ، حيث تعارفا وانس الواحد منهما بالآخر .

فأحسن النويهي استقبالنا .. حيث زاد سرورا بوجودنا معه ..

ثم تقدم منه الاستاذ هلال ناجي بتحية ادبية متواضعة ـ على حد قوله ـ تمثلت في « تشكيلة » من مؤلفاته ومصنفاته .

وفاجأني النويهي بسؤال يكاد يكون غريبا :

ـ سمعت هنا انك اعتزلت الادب منذ عامين ؟

انبرى له الاستاذ هلال ناجي بصراحته المعهودة ، قاطعا علي الطريق :

ـ الذي يعتزل الادب لا يصدر له كتابان في هذا العام!

واسرعت اعلق :

ـ تشرفت بتقديم هذين الكتابين الى الدكتور النويهي ، اضافة الى كتابي « نظرات في الكتب » الصادر في العام الفارط ، في لقائنا الاول .

ـ نعم وانا شاكر .. (ومتابعا) :

ـ بماذا تشتغلان ؟!

ـ بشؤون الادب وشجونه ..

ولمع في ذهني ان استدرج النويهي بعض الشيء ..

ـ دعنا يا دكتور من هذا .. ترى كيف مرت ايام « المربد » ؟

ـ نقدت شعراء الجلسة الاولى ..

ـ وتلقيت سيلا من نقدات ووخزات على نقدك ؟

مبتسما :

ـ لا يهم .. فالنقد مر وصاحبه ممقوت على كل حال

ـ ثم « طلبت العذر من الجواهري واطلت .. » ؟!

ـ من يقول ؟

ـ ذلك ما قراته في صحيفة « المربد » ؟

ـ هذا لم يقع ؟

ثم استطرد النويهي من تلقاء نفسه بالحرف الواحد:

ـ وتلقيت هدية ثمينة من وزير الاعلام الاستاذ شفيق الكمالي .

حتى اذا ادركنا الوقت خرجنا مودعين النويهي الذي ابى الا ان ينزل معنا الى باب الفندق ، ومتمنين له رحلة هادئة ، ثم محملين اياه تحياتنا الى اخوة احبة لنا ، على ضفاف النيل .

وما أن وصل النويهي الى القاهرة .. واستقرت به الحال هناك ، حتى كتب الي والى الاستاذ هلال ناجي

رسالتين مؤرختين بالسادس عشر من نيسان ١٩٧١ ، ضمنهما انطباعه الخاص عنا ، واحتفاظه بذكرياته الطيبة معنا ..

فقد قال في رسالته الموجهة الي : « تحية مباركة وسلاما مباركا . لقد كان من اسعد ساعاتي في العراق الحبيب تلك الساعة التي التقيت فيها بك فجددنا الصداقة التي بدأتها مراسلاتنا . ولقد حقق الخبر الخبر وزاد عليه في الاثر فوجدتك نادر المثال في الكرم والنبل ودماثة الخلق ورجاحة الفكر . ولن انسى ما حييت كيف بادرت الى لقائي والترحيب بي في فندق بغداد برغم الحالة النفسية العصيبة التي كنت تمر بها اثر مرض عقيلتك الفاضلة . ادعو المولى سبحانه ان يتم لها الشفاء ويسبغ عليها نعمة الصحة . ثم زدت في كرمك فزرتني مرة اخرى وقضينا وقتا هنيئا ومعنا الاستاذ الجليل المجاهد الكبير السيد هلال ناجي ، فلك مني شكر يعجز قلمي عن الاحاطة بوصفه » .

ويواصل النويهي قائلا : « تصفحت مؤلفاتك الثلاثة التي تفضلت باهدائها الي « شخصيات من الادب المعاصر » و « نظرات في الكتب » و « في الادب والحياة » وقطفت من زهورها اليانعة واستمتعت ببعض ثمارها الشهية هنا وهناك . وانا ارجو ان افرغ لاخي في فرصة قريبة لانهل من معينها الثر واتزود من زادها الدسم . فلك عميق شكري وصادق اعجابي ومخلص تقديري » .

ودارت للايام دورات ..

ولم اعد اتسلم شخصيا من النويهي رسالة او نسخة من الطبعات الجديدة (٥) من مؤلفاته التي وعدني بها .. كذلك لم اسمع عنه خبرا عن وجوده هنا او هناك . لكني مع ذلك استدرجت صديقا من الادباء بالقاهرة ، ليوافيني بحكم جولاته في ميدان الثقافة والصحافة ، بما يشفي الغليل عن النويهي ..

بالفعل صدق حدسي .. اجاب ذلك الصديق عن ما رمت قائلا : لم اعاود السؤال عن الدكاترة عن آل نويه وبويه .. لانشغالي عنهم باسباب الرزق . وقد فهمت انه صدرت في بيروت طبعة ضخمة من كتاب «قضية الشعر الجديد» حوت كثيرا من « الادب النسوي البلدي » الذي اقحمه اولئك الدكاترة على الادب العربي ، ففسروا شعر المتنبي والبحتري يقول بنت البلد « يا عواذل فلفلوا » وان لم تصدقني فارجع الى بشار واستعد ما قلناه فيه من نفيس الكلم » .

* * *

في الاعوام القليلة الاخيرة طالما حاولت اهداء بعض كتبي الجديدة الى النويهي تأكيدا لاخاء تالد ، واعزاز قائم ، بالرغم من القطيعة الادبية التي اتصلت حلقاتها في ما بيننا بغتة .. بسبب من الظروف الحياتية القاسية التي اخذت تظهر النويهي أمامي بذلك المظهر غير الطبيعي ، والتي ـ على ما تحقق ـ لم يستطع التغلب عليها او التقليل من وطأتها .. الشديدة عليه .

كان لا بد لي من الاستعانة بصديقي الاستاذ وديع فلسطين الذي تعود الهروع الى تسليط مصباحه المنير على كل درب ملتو مظلم ، بحثا عن اديب ضائع او مضاع ، او كتاب مفقود ، او مخزون .

اذ رد علي الوديع بالسرعة المستطاعة وهو يصرخ : « لا اعرف على وجه اليقين هل تقاعد استاذنا النويهي او انه ما زال يواصل عمله . وآخر مرة رايته فيها كانت من سبعة شهور او ثمانية وقد اذهلني حجمه الذي تناقص حتى صار مثلي يفصل خمسة من امثالي . ويبدو انه هو الاخر بدوره مصاب بالسكري الذي يذيب شحومات الجسم ويحول « احمد الجندي » الى قوام « مارلين مانرو .. »

اذن كان داء السكر وراء ذلك كله ..

فازال كل علامة من علامات السؤال .. ومحا كل شك من الشكوك .. ولكنه اثار كل قلق .. اي قلق ..

هكذا بات النويهي مغلوبا على امره . ينهكه داؤه . ويقض مضجعه دواؤه .

في الرابع عشر من شباط ١٩٨٠ قضت مشيئة الرب التي لا مشيئة فوقها ، ان يرخي جفنيه المرتعشتين ، ويغمض عينيه الخابيتين ، غائبا الى الابد عن دنيانا بكل مضحكاتها ومبكياتها ، و في نفسه اكثر من شيء ..

ويحزنني النعي الذي تناهى على البعد ..

ثم يكتسب الحزن بعدا آخر ، عندما رحت اقرأ كلمات الوديع ، في آخر رسالة له ، وهو الذي يقول : « لعلك سمعت ان استاذنا النويهي ودع دنيانا يوم ١٤ فبراير ـ شباط ـ وآخر مرة قابلته كانت قبل ذلك بنحو ستة شهور ، وقد دهشت لمرآه وقد اصبح في حجم القلم الرصاص وكان قبل ذلك في حجم الكركدن » ..

شيعت جنازته الى مقره الاخير في قريته المغمورة في الريف ..

غمره الله بغيث من رحماته ..

(١و٢) انظر « خصام ونقد » طه حسين . صفحة ٢٢٥ و٢٣٠ دار العلم للملايين . بيروت ١٩٥٥ .

(٣) تحقق هذا الامل بعدما يقارب الربع قرن .

(٤) انظر العدد الصادر في ١٧-٤-١٩٦٤ .

(٥) كالطبعة الثانية من كتاب « قضية الشعر الجديد » والطبعة الثانية من كتاب « نفسية ابي نواس » وفيه رد النويهي على طه حسين مناقشا آراءه الخاصة بابي نواس في ضوء التحليل النفسي .

بغداد — وحيد الدين بهاء الدين



عيسى فتوح

مختارات من اعمال لوقيانوس السميساطي

بقلم عيسى فتوح

* * *

في عام ١٩٦٧ اصدرت اللجنة الدولية لترجمة الروائع الانسانية في بيروت « اليونسكو » كتاب « مسامرات الاموات واستفتاء ميت » للكاتب الفراتي لوقيانوس السميساطي ، الذي نقله الى العربية عن الاصل اليوناني وقدم له وعلق عليه الاستاذ الياس سعد غالي . واليوم يقدم الاستاذان سعد صائب ومفيد عرنوق اول ترجمة لكتاب « مختارات من محاورات لوقيانوس السميساطي وفصوله » عن الفرنسية ، وقد تمت طباعتها مؤخرا في وزارة الثقافة والاعلام العراقية . وقبل ان اتحدث عن هذا العمل الرائع المتميز الذي اغنى المكتبة العربية ، واعطى القارىء العربي صورة واضحة وتامة عن لوقيانوس — السوري الاصل — يجب ان نتوقف قليلا لنتعرف على نبوغ لوقيانوس ، هذا الكاتب الذي زعم بعضهم انه يوناني، لانه كتب كل اعماله باليونانية بدلا من السريانية، لغة بلاده الاصلية آنذاك .

ولد لوقيانوس في بلدة « سميساط » على نهر الفرات الاعلى ، وعاش بين (١٢٥ — ١٩٢) للميلاد ، ونشر باسمه حوالي ثمانين كتابا ، اكثرها من تأليفه ، وبعضها منسوب له ، وكانت لغته الاصلية هي السريانية ، لكنه تثقف باليونانية وكتب بها مختلف اعماله الفلسفية والحوارية والتاريخية ، فاثبت مقدرة فائقة ، ولا سيما في تكييف وجوه البلاغة ، واستخدام التهكم ، ورواية الاحداث ، وابتكار القصص ، والتعمق في النظريات والسخرية منها .

امضى لوقيانوس شطرا كبيرا من حياته متنقلا يجوب ارجاء الاناضول واسيا الصغرى واليونان وايطاليا وفرنسا وجزر البحر المتوسط ، ليلقي في كل مدينة يحل فيها بعض المحاضرات والخطب على جماهير المعجبين ، وقد جمع من محاضراته وخطبه اموالا كثيرة ، قبل ان يستقر به المقام في انطاكية ، عاصمة سورية آنذاك ، وقاعدة الشرق الاولى في العصر القديم ، حيث مارس المحاماة وكان موضع تقدير كبير من مواطنيه ، الى ان غادرها قاصدا اثينا التي وضع فيها عددا من آثاره الهامة ، حتى استوى به المطاف اخيرا في مصر ، حيث مات ودفن .

يقول الدكتور انور حاتم في المقدمة الجيدة التي وضعها للكتاب : ان لوقيانوس كان يمثل عبقرية شعب سورية بمرونة فكره ، وحدة ذهنه ، وسرعة خاطره ، وقوة حافظته وخصب ابداعه فكان اول من تخيل الرحلات بين الافلاك، وفتح القمر ، واتصال سكان الارض بالكواكب ، وقد اخذ عنه كثيرون من كتاب الغرب ، كسويفت ، وتوماس مور ، وفينيلون ، وسيرانودي برجراك ، ورابليه . وكان في تهكمه اللاذع، ونظرته الساخرة الى الحياة ومعلما كبيرا لايراسموس وفولتير ، ورينان ، واناتول فرانس ، وبرنارد شو ... تهكم على البشر كافة ، وسخر من غرورهم التافه ، وطموحهم الحقير ، وجشعهم السخيف ، وسجودهم للاصنام طلبا للمال الزائل ، والمجد الباطل .

اهم ما يميز شخصية لوقيانوس حبه للاستقلال والحرية التي هي اعز صديق له ، واستقباحه عمل من كانوا يسخرون اقلامهم للدفاع عن الظالمين من اصحاب النفوذ في سبيل اقتناص المنافع المادية ، وقد شبه هؤلاء الكتاب بمن يحمل غلا من ذهب ... كما وصف سوء مصير « المنافقين المهرجين والدجالين الجهال الذين خلقوا — كما يقول — ليزحفوا على بطونهم ، وولدوا للذل ، وعاشوا للهوان ، وفطموا على المسكنة » .

احب لوقيانوس بلاده حبا جما ، وكان بعده عنها

يزيده تعلقا بها وشوقا اليها ، وقد اعرب عن هذا الشعور في كتابه « مدح الوطن » الذي يعد لسان حال كل مغترب يحن الى وطنه فيقول : « ليس من شيء احلى واكثر حرمة وقدسية للبشر من الوطن ... ومهما علا شأن البلاد الاجنبية ، وكان جمالها فاتنا ، وكانت معالمها فخمة ، فلن تستطيع ان تحمل انسانا على نسيان بلده . وقد شبه لوقيانوس حب الوطن بحب الآباء ، وجعل عرفان الجميل للوطن يتقدم على عرفان الجميل للوالدين .

ويرى لوقيانوس الذين يحرزون النجاح في ديار الهجرة ينقصهم شيء واحد لكي يكونوا سعداء ، هو الاقامة في بلدهم ، عوضا عن ان يستقروا في بلد اجنبي وان لفظة « غريب » هي لعنة كبرى في نظره . وان الذين اكتسبوا الشهرة والثراء خارج اوطانهم يظلون مع ذلك حريصين على العودة اليها ، كأنهم يريدون ان يشركوا وطنهم بما سجلوا من توفيق ، وما حققوا من عزة ومجد ، وهو نفسه كان يفضل قبرا في وطنه على الجنة في المهجر .

درس لوقيانوس اللغة اليونانية في ايونيا في آسيا الصغرى ، بين ازمير ومنديليا ، وتعمق في الفلسفة والتاريخ والادب والبلاغة على ايدي اساتذة سوريين مثل بوليمون اللاذقي الذي كان من اعظم اساتذة عصره ، واطلع على جميع اعمال الكلاسيكيين ، فاستظهر اشعار هوميروس ، وقرا هزيود وبندار وسيموند ، وآثار الدراميين وبخاصة أوريبيد ، والهزليين كأريستوفان ، دون ان ينسى الفلاسفة كأفلاطون ، وارسطو ، وابيقور ، وقرأ للمؤرخين كهيرودوت وتوسيديد وزينوفون ، وللخطباء كديموستين ، الذي كان يجله . ولما انتهى من دراسته ، امتهن المحاماة في انطاكية ، لكنه لم يلبث ان مل هذه المهنة وتوجه الى اثينا ليعمل سفسطائيا ، اذ كان السفسطائيون آنذاك خطباء مصاقع ، ينتقلون من بلد الى آخر ، ويلقون خطبهم امام الاغنياء ، فيجنون منها مالا وفيرا وشهرة واسعة ، وعندما بلغ الاربعين ، اعتزل السفسطائية واهملها ، وعاد مرة اخرى الى الفلسفة والاخلاق العلمية ، غايته من ذلك الكشف عن المتشدقين والمشعوذين والكذابين والمتكبرين الذين كان يكرههم ويصنفهم في فئة الاراذل .

والسؤال الذي يطرح نفسه بعد هذه الجولة في حياة لوقيانوس ودراسته وثقافته ، لماذا لم تترجم اعماله كلها او بعضها الى العربية الا في زمن متأخر جدا ، في حين انها نقلت الى معظم اللغات العالمية منذ عام ١٢٩٦ كاللاتينية ، والالمانية ، والانكليزية ، والفرنسية ؟ واحتفى به الغربيون ايما احتفاء ، فاغتنوا بعبقريته الفذة ، واهملناه نحن زمنا طويلا ، فضاعت من يدنا ثروة ادبية وفكرية نادرة ؟! وقد اشرنا الى الاثر الكبير الذي تركه في ادباء الغرب كشكسبير ، وفولتير ، واناتول فرانس ، وبرنارد شو وغيرهم ، فقد اقتفى هؤلاء اثر لوقيانوس في اسلوبه الساخر ، وتهكمه اللاذع ، ونقده المرير ، حتى ان فولتير سمي بلوقيانوس الساخر .

اعتمد المترجمان في نقل آثار لوقيانوس على طبعة فرنسية جيدة وكاملة ، تقع في ثلاثة اجزاء اصدرتها مكتبة « غارنيه » في باريس ، وحوت معظم آثاره المعروفة ، قام بنقلها من اليونانية الى الفرنسية اميل شامبري . وقد جاءت الطبعة العربية في اربعمئة صفحة من القطع الكبير ، والطباعة المتقنة والمجلدة ، فكانت بحق اوفى مرجع عربي لمعرفة لوقيانوس والاطلاع على آثاره المتعددة المتنوعة التي نافت على الثمانين .

تحدث المترجمان الاستاذان سعد صائب ومفيد عرنوق في الصفحات الاولى من الكتاب عن حياة لوقيانوس وآثاره ، وتتلمذه على السفسطائيين ، وعن لوقيانوس الاخلاقي الهجاء ، وعن محاوراته ، ولا سيما كتاب « محاورات الموتى » الذي يعتبر اشهر آثاره قاطبة ، ولذلك قلده عدد من الادباء ونسجوا محاوراتهم على منواله وقد اراد ان يثأر فيه للفقير والمضطهد من الغني والقوي .

ثم تحدثا عن مآسيه الصغيرة وطباع اشخاصه واسلوبه الزاخر بالفكاهة ، والالفاظ الساخرة اللاذعة ، وتوقفا وقفة قصيرة عند اثرين صغيرين له هما « قصة حقيقية » التي تشمل على تقليد وتحوير لاقاصيص « عوليس » ـ اشهر الابطال الاغريق ـ و « حمار » التي استلهم موضوعها من قصة « سيرسيه » لهوميروس .

قسم المترجمان كتابهما الى قسمين ، الاول ١٧٦ صفحة ويضم موضوعات : الحلم او حياة لوقيانوس ، التحول ، حكم الآلهة ، بين الهتين ، دفاع عن الشرف ، الآلهة تموت ، بين الشيوخ والشباب ، خارون ، مذاهب في المزاد ، الصياد ، الطفيلي ، العبيد الآبقون ، مجلس الآلهة ، قرار. والقسم الثاني ١٤٤ صفحة ويضم موضوعات الالهة السورية ، تيمون ، عدو المجتمع ، كيف يجب ان يكتب التاريخ ، بالاضافة الى صفحات الهوامش والتعليقات والايضاحات الكثيرة .

لغة الترجمة ممتازة فهناك جودة في سبك العبارة ووضعها في قالب عربي متين ، لا غموض فيها ولا التواء ، وهذا دليل على فهم المعنى الاصلي ، والتمكن من اللغتين المنقول منها والمنقول اليها ، والتمرس بالترجمة الدقيقة ، فكلاهما قد اصدر اكثر من اثر واحد في هذا المجال ... ومن الممتع ان القارىء لا يحس انه يطالع اثرا مترجما لكاتبين اختلف اسلوبهما ، وتباينت طرائق التعبير عندهما .

فشكرا للمترجمين الكريمين على نقل هذه التحفة الثمينة النادرة الى لغة الضاد ، وقد جاءت لتتوج كل اعمالهما الادبية السابقة .

دمشق — **عيسى فتوح**

بقرة جابر

بقلم عبد العزيز الشناوي

قصة

ــ كم الساعة الآن ؟
زحفت يده الى جيب الصديري .. تذكر انه قد نسي ساعته فيداره تحت الوسادة ..
تطلع الى ظله المنبطح على الارض :
ــ الساعة تقترب من الثالثة .
حملت زوجته على راسها «قفة» مملوءة بلفافات من اللحم .. اخذت قلب الجنيهات القليلة بين انامله في صمت حزين .. تعثرت خطواته في شباك الحيرة .. مرت سيارة بجانبه .. شيعها بعينين شاردتين .. ماذا افعل لو جاء احمد بعد اسبوع من طنطا ؟ بأي وجه اقابله ؟ كيف أبدأ معه الحديث ؟ ستخبره والدته ؟ سيقدر موقفي عندما يعلم ما حدث ؟ اعاد النقود الى جيبه .

آخر لقاء بينهما قال :
ــ يا عم جابر سيكون عقد القران والزفاف في ليلة واحدة ... سوف احصل على اجازة .. اربعة ايام .. لكي نشتري الاثاث .. ويقوم المنجد بعمل اللازم و...
ــ يفعل الله ما يريد
ــ الامر لم يعد يحتمل التأخير .. دفعت مهري منذ سبعة اشهر.. هناك تقصير من جانبي ؟
ــ كلا .

راحت امه تطرق بابي .. كل يوم .. اجتهد يا شيخ جابر .. احمد ارسل اليخطابا.. طلب منيمقابلتك لكي « امهمزك » .
ترامى الى مسمعه صوت غراب لحوح .. التقط حجرا .. طار الغراب .. لمحه وهو ينحني على الارض ؟

قال لزوجته ذات ليلة وهيبجانبه على ظهر الفرن :
ــ ما رايكلو بعنا كردانك الذهبي ووضعنا ثمنه على مهر فتحية ونشتري عجلة ..؟ لن تمر ستة اشهر حتى تكبر وتباع باضعاف ثمنها .. وبذلك يعود اليك ثمن كردانكولا نرهق انفسنا.. فما زال لنا خمس بنات تتركز آمالنا في ايجاد ازواج لهن .
ــ الراي رايك يا شيخ جابر هل سأعرف اكثر منك ؟

ارتفع صوت ساقية ترسل اناتها الحزينة في عروق السكون عصبت بقرتي .. ربطتها في ذراعالساقية.. دفعتها ببطء لتسير متوهمة انها تمضي قدما الى الامام .. جلست تحت ظل شجرة الجميز اتناولغدائي .. انهالت تحت حافر البقرة قطعة من المدار .. سقطت في بئر الساقية بين المدار والتابوت .. صرخت بكل حنجرتي اطلب الغياث .. نزعت الزمام من عنق البقرة حتىلاتختنق .. هرع اهل القرية الى مصدر الصوت .. تكاثرت المشورات .. خرجت البقرة من البئر بين صيحات الرجال وزغاريد النساء .. اخذت امسح عرقها برفق .. اكفكفالدموع من عينيها بحنان .

لو كانت احدى بناتي المسجاة امامي على الارض لما عزت علي اكثر مما عزت علي البقرة .. ذبحتها .. ما زالت يدي مخضبة بدمائها.
هتفت امرأة تحمل على راسها سفطا :
تمر على بيوت القرية .. عادت والاسى يملأ وجهها :
ــ رفضوا اخذ اللحم .. قال البعض ان البقرة « فطست » قبل ان تذبح .. كيف نأكل اللحم « الوقيع » ؟.. انا على يقين ان الحاج شريف العمدة الجديد هو الذي اطلق هذه الشائعات المسمومة .

ماذا فعلت للحاج شريف ؟ اساءة انني تجرأت وركبت حماري امام مضيفته ؟ لكنها كانت خالية .. شبانة الخفير هو الذي اخبره ؟ لم يرني سواه .. لكن علاقتي به .. سمن على عسل .. ثم انه صموت .. لا بد ان الحاج شريف وضعني في عين اعور لانني وقفت بجانب العمدة القديم في حركة الانتخابات .. لكن كل واحد حر .. يعطي صوته لمن يريد .

الديدان ابلغته قولي ؟
ــ والله يا ناس اقطع ذراعي ان ورد الحاج شريف على جنة .. الم تلوموا انفسكم بعد ان اخذ العمودية من الرجل المصلي المزكي؟ لقد قذفتم بانفسكم فيالنار .. سيسخركم في ارضه وبيته بلا اجر .

انحنى على شاطىء الترعة ... وراح يملأ راحتيه بالماء .. روىظمأه .. مسح وجهه بكفيه المبللتين لو سمعت نصيحة زوجتك وادرت لضجة الانتخابات اذنا منطينواخرى من عجين ؟ لكن نهش الغضبصدرك وتدفق من فمك سيل من الشتائم على رأس العمدة الجديد :
ــ يا عالم فكروا جيدا .. كيف تنتخبون رجلا ذمته يرمح فيها الحصان.. يرتشيبالقرشوالدجاجة
لو اغلقت فمي لما حدث ما حدث .. لكن كيف ألجم لساني وقد رايت منكرا نهانا عنه الشيخ وهدانخطيب المسجد في خطبة الجمعة ؟ لكنه سار في موكب الحاج شريف .. مهللا.. مهنئا .. يعدد فضائله .. كلام ..؟

ينصحون الناس وينسون انفسهم!. اسرها العمدة لي في نفسه وعندما سقطت بقرتي في البئر ..؟

صفع وجه الترعة بقالب طوب .. صنع دوائر متلاحقة .. فعلها الحاج شريف قبل ذلك مع السيد الدسوقي عندما رفض ان يحمل له حملي حطب على ظهر جمله .. طلب من اهل القرية عدم التعامل معه والابتعاد عنه :

ـ السيد الدسوقي .. ولدخطير على الامن ..تاجر مخدرات .. اذا كان يتظاهر انه جمال . لا .. عيني مفتوحة .. انه يتخذ الجمل ستارا يتوارى خلفه لكي يبيع الحشيش والافيون .. لكن قسما اذا وقع في يدي فلن يعرف الذباب الازرق له مكانا .

عندما صدمت احدى السيارات جمله .. وقف الحاج شريف في الجرن يراقب بعينيه الصفراوين «السبية» .. تتراقص على شفتيه ابتسامة تطفح بالتشفي كلما وقع بصره على السيد الدسوقي ينش الذباب بيده الحانقة عن اللحم الذي فاحت منه رائحة العفن ..

واصل سيره .. تعثرت قدمه في حفرة .. كاد يسقط على الارض.. كان على استعداد ان يبيع لحم البقرة ارخص كثيرا من سعر اللحم في السوق .. لماذا ازورت عني الناس؟ الحاج شريف يلاحقني الاضطهاد اينما كنت ؟ يعتقد ان في يده تتجمع القدرة على الارزاق وقطعها ؟.. مر علي بعد ان ذبحت البقرة .

في صوت تفوح منه السخرية والتشفي :

ـ سلام عليكم .. يا جابر .

ـ عليكم السلام .. يا حضرة العمدة .

شيعته بنظرة ملتهبة .. حمدت الله على أن لي اصدقاء خلصاء مثل السيد الدسوقي والعدل بن زليخة وحسين عبد المجيد .. لكن لماذا لم يشتر كل منهم رطلين من اللحم؟ رطل اللحم ترف .. لا يدخل بيوتهم الا في المواسم والاعياد .. ثم انني ارفض الصدقة التي يجود بها علي الاصدقاء .. كارهين .. كفى ما فعلوه عندما سقطت البقرة في البئر .. انصرفوا بعد ان اخرجوها بلا انتظار لكلمة شكر .. قانون القرية في المصائب يتنزه عن رخيص المجاملات .

وهم مسمعه صوت جرس دراجة .. اجفل .. وقع بصره على احد رجال البوليس .



عبدالعزيز الشناوي

●

في الصباح قالت لي زوجتي :

ـ يا شيخ جابر ما دام الحاج شريف يراقب اهل القرية بعينيه الثعبانيتين .. قل على البقرة السلام .. لن يجرؤ احد على شراء رطل من اللحم .. لا نريد ان يحدث لبقرتنا ما حدث لجمل السيد الدسوقي .

ـ ماذا نفعل ؟

ـ انني اقترح أن تحمل البقرة الذبيح الى طنطا .. هناك جزارون .. وتستطيع ان تبيعها بعيدا .. عن وجه الحاج شريف .

ـ كلام معقول .

استأجر عربة كارو .. كانت ذاهبة الى طنطا لاحضار تموين حسانين البقال .. وضع عليها قليلا من القش .. هز الجزارون رؤوسهم :

ـ ليس على البقرة الذبيح ختم السلاخانة .

لم استطع ان اخبرهم انها كانت بصحة جيدة .. وانها سقطت في بئر الساقية .. وانني « لهفتها » بالسكين .. لو انتظرت يوما اخر استحال لحمها الى عفن والقيت بها في الترعة كما فعل السيد الدسوقي مع جمله ..! التحم الجزار معي في مماكسة .. قبل ان اخذ الثمن الذي حدده .. « طب » احد رجال البوليس . تواثب شاربه اللامع :

ـ ما هذا ..؟ بقرة ذبيح .. اين ختم السلاخانة ؟

« شفط » جنيها .. انبسطت اسارير وجهه الذي يشبه ثمرة الطماطم .. طلب من الجزار ان يسرع بوضع البقرة في الثلاجة .

شعر بالتعب يدب في كيانه .. القي بجسده عند اقدام شجرة كافور عتيقة .. راح يجفف العرق المتفصد من جبينه وقفاه بمنديله المحلاوي.. أبصر رجلا يخط بمحراثه على صدر الارض آمال عامه المقبل .

كنت ادعو على ابنتي عندما نعصوني بالداء في غير مبالاة ولاتفكير .. ولكن عندما كانت تعصاني بقرتي في المحراث او الساقية احاذر ان تكون ابواب السماء مفتوحة فادعو لها بالبركة والبقاء .. كان خوارها في الصباح .. زغرودة عروس في اذني .. ارقب الامل مشرقا من بقرتي .. ناميا بالشهر كلما نمت هي باليوم.. تبددت أحلامي في لحظة ؟ فقدت كردان زوجتي ومهر ابنتي ؟

تحسس الجنيهات القليلة القابعة في جوف جيبه .. انسابت من بين شفتيه تنهيدة الهبتها الحسرة ..

لن ينفع الندم

*

عـدت لي باكيـة نادمـة ... ارجعي، لن ينفع ـ اليوم ـ الندم
تطلبين الصفح مني بعدما ... طيشك المغرور لم يرع القيم
انما الانسان انسان .. اذا ... حفظ العهد وما خان الذمم
لا تعودي ، وارجعي عني ، فما ... عاد بي نحوك ذياك النهم
بردت عاطفة مشبوبة ... طالما فيَ نارها القلب اضطرم
قد صحا قلبي من سكرته ... بعدما كاس الالاعيب انحطم
كل ما حولك يملي تهما ... لك . ما افظع هاتيك التهم
يا لسوء الحال اذ فيك انتهت ... لقمة سائغة في كل فم
يا لها خاتمة مفجعة ... طالما تبعث في القلب الالم
انا اجملت لك الحال التي ... ملأت نفسي نفورا وسأم
فدعي عني التفاصيل .. فمن ... ذكرها من خجل يعيا القلم
ما تبقى لك في قلبي هوى ... ان حبي راح يطويه العدم
لك درب غير دربي .. انني ... في الضحى امشي ، وانت في الظلم

بغداد ص ب ٢٢٠٣٨ — محمد جواد الغبان

اسند راسه الى جذع شجرة الكافور .. ينعي اليها همومه وحيرته .

كان محبوبا من اهل القرية جميعا .. يؤثرهم بالخير على نفسه .. يكتفي الناس يده ولسانه .. لماذا انفضوا من حولك . يخشون بطش الحاج شريف ؟ على العموم لن انسى جميل احد .. لولا قدومهم لماتت البقرة في بئر الساقية .. الناس لبعضها .. لن يبقى الا المعروف والكلمة الطيبة .. لكن لو اخذ كل واحد رطلا من اللحم .؟ المصيبة اذا تفرقت خفت وطأتها اما ..؟ ما هذا الذي اقوله؟ انني لا اقبل صدقة من احد .. ماذا أريد .. اذن ؟ كل ما كنت اريده ان اتلقى كلمة عطف تشعرني انني بين أحضان احباء .. ناصبني اهل القرية العداء من اجل العمدة .. الجديد ؟

ارتفع عواء احد الكلاب .. رأى كلبين يتشاجران .. انتزع فرعا من شجرة الكافور .. لوح به .

ضحك الرجل الذي يمسك برمح المحراث :

ـ لا تشغل بالك .. دعهما .. الكلب لا يعض اخاه .. بعد قليل ستراهما يلعبان معا ..

طلخا ـ مصر — عبدالعزيز الشناوي



١ ـ مختارات من الشعر الايطالي المعاصر

ترجمة الدكتور عيسى الناعوري ـ ٢٠٤ صفحات ـ مطابع الف باء الاديب ـ دمشق ١٩٧٨

اذا كان المرحوم الدكتور حسن عثمان هو النافذة الواسعة التي اطل منها القراء العرب على ادب دانتي ، من خلال ترجمته الجيدة للكوميديا الالهية ، فان الدكتور عيسى الناعوري يعتبر بحق الكاتب العربي الوحيد الذي سلك بعده نفس المنهج ، فتخصص في الادب الايطالي منذ عام ١٩٦٠ ، وزار ايطاليا مرارا متعددة ، وكتب في بعض صحفها ، وتعرف بعدد كبير من اشهر ادبائها المعاصرين ، والقى محاضرات في بعض جامعاتها ، واشترك في عدة مؤتمرات فيها ، ونال منها وساما رفيعا وجائزة ادبية ، وعضوية شرف في المركز الايطالي العربي في روما ، كما ترجم من الادب الايطالي كتاب « اطفال وعجائز » وهو مجموعة اقاصيص لعدد من المؤلفين الايطاليين ، ورواية « الفهد » لتومازي دي لامبيدوزا ورواية « الرجال والرفض » لايليو فيتوريني ، بالاضافة الى مئات القصائد لشعراء متعددين ، وعشرات المحاضرات والمقالات والبحوث والقصص والموضوعات المختلفة في الادب الايطالي .

وها هوذا اليوم يتحفنا بباقة جميلة من اروع المختارات الشعرية التي ترجمها خلال سبعة عشر عاما ١٩٦١ ـ ١٩٧٧ جمعها له الدكتور البرتو باديني ، استاذ اللغة الايطالية في الجامعة الاردنية ، والدكتور انريكو جورداني ، استاذ اللغة الايطالية في جامعة دمشق ، ليعقدا الصلة بين القارىء العربي والشعر الايطالي المعاصر ، فقد جعل المترجم النص الايطالي والنص العربي في صفحتين متقابلتين ، ليكون بالامكان التثبت من صحة الترجمة ، وليتاح لمن لم يطلعوا على الاصل الايطالي من قبل ، ان يقراوه في مكانه الجديد .

ومن حسن الحظ ان الدكتور الناعوري يعرف القسم الاكبر من هؤلاء الشعراء الذين ترجم لهم ، وقد ناقش شعرهم وحياتهم معهم مباشرة ، وانعقدت بينه وبينهم صلات مودة ومراسلات ، بعضهم مات ، وبعضهم الاخر ما يزال على قيد الحياة . وبفضل صلته الشخصية بهم ، فقد استطاع ان يقتني مؤلفاتهم ـ واغلبها هدايا ـ تلقاها منهم ، او من ناشري كتبهم .

ومما يفخر به المترجم ان اثنين من هؤلاء الشعراء الذين يعتز بصداقتهم فازا بجائزة نوبل للاداب ، وهما « سلفاتورة كوازيمودو » عام ١٩٥٩ ، « وايوجينو مونتالي » عام ١٩٧٥ ، وكان العربي الوحيد الذي استطاع في هاتين المناسبتين ان يقدم الشاعرين العظيمين الى القراء العرب في حياتهما وشعرهما .

على كل حال لم يكن الشعراء اونغاريتي وسابا ودييغو فاليري ـ ممن ترجم لهم في هذه المجموعة ـ دون زميلهم اهمية في الشعر الايطالي المعاصر ، بل لقد كان اونغاريتي في نظر الايطاليين كلهم الشاعر الاعظم والاجدر بالجائزة العالمية ، لكنه مات دون ان يفوز بها ، مع ان اسمه ظل مرشحا لها عدة سنين ، ومثله ايضا اومبرتو سابا ، ودييغو فاليري بشكل خاص .

كذلك قدم الى جانب هذه الاسماء الكبيرة مجموعة اخرى من الشعراء الذين شاركوا مشاركة فعالة في الشعر الايطالي المعاصر ، فاستطاع بذلك ان يعطي صورة صادقة عن حركة هذا الشعر واهدافه الانسانية ، واساليبه الجديدة . ولكي لا يكون هؤلاء الشعراء مجهولين بالنسبة الى القارىء العربي ، فقد وضع مقدمة قصيرة لكل واحد منهم ، تحدث فيها عن حياته وابرز اعماله الشعرية والادبية ، وآراء النقاد فيه ، كما زين الكتاب بعدة لوحات فنية رائعة لطائفة من الرسامين الايطاليين ، هي بمثابة استراحة قصيرة يقف عندها القارىء كلما انتهى من شاعر وبدأ بآخر .

يقع الكتاب في ٣٠٢ صفحات من القطع الوسط ، ويضم خمسة وعشرين شاعرا وشاعرة هم بالاضافة الى من ذكرت : ايلزا مورانته ، سيرجيو سولمي ، فيتوريو سيريني ، نينو موتشيولي، ايرالدو مورانته، تشيزاره بافيزه ، لينا انجوليتي ، جوزيبي لونغو ، ايليو اكروكا ، بياجيا مارنيتي ، البينو بيرو ، البريكو سالا ، رفائيلي تشيكوني ، الفيتسيا فاللي ، انتسو فابياني ، انطونيو اوزناتو ، رفائيلي كروفي ، بيير باولو بازوليني ، فنشنتزو كارداريلي ، ليوناردو سنيسفالي ، وقد تفاوتت قصائد هؤلاء الشعراء في الغموض والوضوح ، وترددت بين وصف حياة المدن الصاخبة ، وحياة الفلاحين في الريف البسيط المتواضع فمونتالي مثلا كثير الغموض ، وعبارته الشعرية ـ كما يقول المترجم ـ عبارة مونتالية صرف ، وهو من اكبر شعراء الرمزية (الهرمتية) المغرقة في الغموض ، فبالرغم من انه يستهل قصيدته (نهر الفرات) استهلالا عاديا واضحا ، الا انه لا يلبث ان يدخل في متاهات الرمزية ، ويغوص في دهاليزها المعتمة ومنعطفاتها الوعرة :

رأيت نهر الفرات في الحلم ،
في جريانه البطيء ما بين
منخفضات متآكلة ووقفات عريضة في فجوات
من الرمل مزدانة بنسيج من عناكب الشجر .
ترى ماذا رأيت انت خلال ثلاثين سنة (او مئة) ...

اما شعر كوازيمودو فيعكس ارتباطه الوثيق بمسقط راسه صقلية ، ولا سيما بابنائها الفقراء المحرومين المعرضين للملاريا على ضفاف المستنقعات والانهار :

... لقد نسيت البحر والاصداف
واغاني الرعاة الصقليين ،
وقرقعة العربات على الطرق
التي يرتعش فيها الخروب في دخان القش ...
أواه لقد تعب الجنوب من حمل الموتى
على جوانب مستنقعات الملاريا
لقد تعب من الوحدة ، ومن ثقل السلاسل .

اما المرحلة الثانية من شعره فتعكس معاناته الانسانية امام الحرب والظلم والديكتاتورية ، وأمام مشاهد الجثث المعلقة على اعمدة التلغراف في الشوارع ، وآثار التدمير والخراب ، وامام السجون والتعذيب والقتل بالجملة ، حيث خرج الشاعر عن محيطه الضيق خاصة وايطاليا عامة ، ليرتبط بالانسان حيثما كان ، تجاه الظلم والحرب والمآسي . يقول في قصيدته « ميلانو عام ١٩٤٣ » :

لقد ماتت المدينة
وسمع آخر دوي في قلب نهر نافيليو

وسقط الحسون
عن السلك الهوائي المرتفع فوق الدير
حيث كان يغرد قبل الغروب
لا تحفروا آبارا في افنية البيوت
فلم يعد الاحياء يعطشون .
ولا تلمسوا الموتى الذين احمرت جسومهم وانتفخت ،
دعوهم في ارض بيوتهم :
فلقد ماتت المدينة . ماتت .

ويسخر من انسان زمانه الذي سخر علمه للابادة دون حب ، او دون مسيح ، ويشبهه بانسان الحجر والمقلاع في العصور البدائية الاولى :

ما تزال انسان الحجر والمقلاع
يا انسان زماني . لقد كنت في الطائرة
ذات الاجنحة الشريرة ، معاول الموت ،
ـ لقد رايتك ـ داخل العربة النارية مع الحراب ،
وعند عجلات التعذيب . لقد رايتك : كنت انت ،
بعلمك الدقيق المسخر للابادة ،
دون حب ، ودون مسيح ...

ثم يصور الخراب والدمار اللذين خلفهما الانسان المعاصر في المدن التي استحالت انقاضا ، ولم يعد هنالك من يصرخ « يا الهي لماذا تركتني » :

لقد انتهيتم من قرع الطبول
للموت الذي ينتشر في جميع الافاق
خلف النعوش المتراصة تحت الاعلام ،
وفرغتم من نشر الجراح والدموع المتظاهرة بالرحمة
في المدن التي اصبحت دمارا وخرائب ،
ولم يعد ثمة من يصرخ قائلا : « يا الهي ،
لماذا تركتني ؟ » . ولم يعد يجري حليب ولا دم
من الصدور الطعينة . والان
وقد اخفيتم المدافع بين اشجار المنوليا
دعونا نعش يوما واحدا دون سلاح ، على العشب
ونصغي الى خرير الماء الجاري ...
فلا يتعالى في مطلع الليل
نذير باطفاء الانوار . اعطونا يوما واحدا ،
يوما واحدا فقط ، يا سادةالارض ،
قبل ان يسود فيمتزج الهواء والحديد
فتحرق جبيننا احدى الشظايا الملتهبة .

هكذا يدعو كوازيمودو شعوب الارض الى السلام ، ويظهر نفوره وتبرمه واشمئزازه من انسان زمانه الذي داس القيم الرفيعة في الحياة، وتحول الى محارب عنيد ، لا هم له الا الفتك والتدمير والابادة .

ونقف قليلا عند الشاعر المناضل سيرجيو سولمي ، الذي قطع دراسته اثناء الحرب العالمية الاولى ، والتحق بالجيش برتبة ضابط ، ثم عاد الى تورينو بعد الحرب واسس فيها مجلة ادبية دعاها (الزمن الاول) . كما شارك في المقاومة السرية ضد الفاشية والنازية ، واتخذ اسما ادبيا مستعارا واعتقل مرتين ، فهرب في المرة الاولى من زنزانته، وفي المرة الثانية خرج من السجن واعيدت اليه حريته . يقول في قصيدة « وطني » :

ما ابرعك في اقناعي !
كنت مخدرا من سنين ، واليوم
يشعل النفس عطر اعشابك المحروقة القوى
ويجرحني بلقاء جديد .
واعود فاستسلم الى لعب غيومك .
وصورتي الحائرة تعكسها بلطف
مرآة سمائك
وعلى مشهد الطبيعة الصافي
اراني في صف واحد مع اشجارك .

وينتهي بنا المطاف عند الشاعر نينو موتشيولي الشاعر والنائب في البرلمان الصقلي الذي تخصص في التاريخ والفلسفة ، ثم عمل بعد تخرجه في حقول الصحافة والنشر والتعليم . يتميز شعره بنكهته الصقلية الخاصة ، فهو شاعر الارض الصقلية بلا منازع ، وشاعر الفلاح الصقلي المكافح العنيد ، والصابر على الخشونة والقسوة . يقول في قصيدته « انت لا تعرف صقلية » :

انت لا تعرف صقلية ...
وايدي الرجال الملأى بالعقد
كشجار الزيتون العربية المتقوسة
بفعل العاصفة .
انت لا تعرف هذه الجزيرة ،
وعناء العيش ، وتكاتف الخبز والالم ،
والبغض ـ الحب لمن يعيشون
مع سخرية الماعز ...

لقد اوحت طبيعة صقلية الجبلية ، وحياة الفلاحين القاسية الصعبة ، كثيرا من الصور العابسة المتجهمة لهذا الشاعر ، فالارض القاسية ذات البثور كراحات ايدي الفلاحين ، والفلاحون اشبه بالصبار كلهم اشواك من الخارج ، اما قلوبهم فكانما هبطت من نجوم بعيدة الى دنيانا ، وهم يعتقدون بان القلب ما يزال يخفق بالحب ، وان الكرامة والشرف ما تزال لهما قيمة ، الا يمكن القول بان طباعهم متاثرة الى حد بعيد بطباع واخلاق وعادات العرب الذين عاشوا معهم عدة قرون اثناء الحكم العربي ؟ فلنسمعه يقول في قصيدته « الفلاحون » :

انا اعلف صمت الفلاحين
العاكفين على التعب
وهم يموجون الحبوب من الفجر حتى الغروب
انا اعرف الارض القاسية ،
الارض ذات البثور
مثل راحات ايديهم .
اتدري : انهم اشبه بالصبار ،
كلهم اشواك من الخارج
فاذا بلغت الى قلوبهم ...
بدوا وكانما هبطوا من نجوم بعيدة
الى دنيانا .
وهم ما يزالون يعتقدون بان القلب
ما يزال يخفق بالحب ،
ويظنون ان الكرامة والشرف
ما تزال لهما قيمة .

لا مجال للحديث عن كل شاعر من الشعراء الخمسة والعشرين الذين اختارهم الدكتور الناعوري ، وعرف بهم احسن تعريف ، في هذه الدراسة القصيرة ، فلا بد من مطالعة الكتاب الذي جاء ليخدم قضية التبادل الثقافي والفكري في العالم ، ولعله من افضل الروابط بين البلاد العربية وايطاليا ... فالتفاهم الفكري بين الشعوب كان ولم يزل يسبق التفاهم السياسي ، كما هو معروف .

* * *

٢ ـ ورقات من دفتر عمر

تاليف ميخائيل عيد ـ ١١٢ صفحة ـ زجل ـ مطبعة الجمهورية ـ دمشق

لا اذكر انني حضرت امسية شعرية لميخائيل عيد ، الا ختمها بالزجل ، واذا فاته ان يوشي امسيته ببعض القصائد المكتوبة باللغة المحكية ، طالبه الجمهور بالقاء « مزنة » ، و « ام حسين » وبعض القصائد المشهورة التي لقيت صدى واسعا في الاوساط الشعبية ، ورددتها الالسنة ... فقد بدأ ميخائيل حياته الادبية في بلدته « مشتى الحلو » بنظم الزجل ، قبل ان يجيد النظم بالفصحى ، والترجمة عن اللغة البلغارية التي ارتبط اسمه بها ، ومعظم قصائده يرتد الى هذه المرحلة.

« ورقات من دفتر عمر » هو الديوان الثالث لميخائيل عيد بعد ديوانيه « حكايات وغناني » ١٩٧٠ ، و « سفر » ١٩٧٧ ، ويضم ثلاثين قصيدة كتبت بين عامي ١٩٦٢ ـ ١٩٧٩ تنضح برشحات من حياته الكادحة المعذبة ، حياة الفقر والتشرد والغربة التي كان يلطف الحب والشوق من شراستها وقسوتها .

تتردد القصائد بين قطبي الغزل والسياسة ، فيعبر في قصائده السياسية عن معاناة الجماهير المسحوقة ، ويعبر في قصائده الغزلية عن نبضات قلبه الخافق بالحب ، واختلاجات نفسه الشاعرة التي يبهرها الجمال ، وتسبيها الفتنة ، فلا يستطيع الا ان يعكس هذه النبضات والاختلاجات كلمات دافئة تطفح بالغناء والحب والاحساس بالحياة :

يا مسافرة والشوق بعيونك
قلبي وقلبك ع الحزن عم يكبرو
واعمارنا ورقات ع غصون السنين
مع كل دمعة شوق عم يتنترو .

ويوحي له منظر الصبايا والشباب على طريق ضيعته الجميلة ، في امسيات الصيف الناعسة هذا المشهد الذي رافق طفولته وشبابه، ولا يزال يتكرر حتى اليوم فيقول :

شلعة صبايا صغار يحكو ويكرجو
كرج الحجال ، وفي عيوني يرهجو
اشتاقت شفاف الصيف لشفاف الكرز
يللا يا كرزات الهوى بسرعه انضجو

وشعر ميخائيل عيد في مجمله دعوة الى المحبة والسلام ، ونبذ الحقد والبغض والكراهة ، لانه هكذا تعلم صغيرا ، ثم جعل ذلك مبدأ له في الحياة ... ما ضر لو عاشت الشعوب كلها امة واحدة ، يظللها الحب ، ويربط الود والتفاهم بين قلوبها :

من قال صعبه دروب المحبه ؟
ليش البغض اهون ؟
وما دام عم نزرع ،
والزرع عم يطلع
مخضر وملون ،
ليش بدنا نصبغه اسود ؟
ونحرقو بالحقد والنقمه
من قبل ما يولد ؟...

ترى هل هناك من ينكر عليه هذه الدعوة الانسانية النبيلة ، ويرفض هذا المبدأ الشريف ؟.

ويحلو لميخائيل ان يتحدث كثيرا عن البسطاء والمعذبين والمقهورين في الحياة ، لانه واحد ممن ذاقوا مرارة العذاب صغارا ، فصار لا يلذ الا ان يتغنى بآلامهم ، ويكون اللسان الناطق باسمهم ، والترجمان الصادق لشعورهم بالخيبة والمعاناة ... فام حسين هي أم كل من قست

الاديب

لا يقبل الاشتراك الا عن سنة كاملة بدؤها شهر يناير ، كانون الثاني

تدفع قيمة الاشتراك مقدما وهي :

الاشتراك العادي :

في لبنان وسورية : ٥٠ ليرة لبنانية

●

للمؤسسات والشركات والدوائر الرسمية : ٣٠٠ ل.ل.

●

في الخارج العربي : ١٥٠ ل.ل. او ما يعادلها بالبريد الجوي

سائر الاقطار :

٥٠ دولارا بالبريد الجوي

اشتراك الانصار

في لبنان وسورية : ١٠٠ ل.ل. كحد ادنى
في الخارج ٣٠٠ ل.ل. او ١٠٠ دولار كحد ادنى

●

المقالات التي ترسل الى الاديب ، لا ترد الى اصحابها سواء انشرت ام لم تنشر
للاعلان تراجع ادارة المجلة

●

☎ الادارة : ٢٢٣٨١٩
المنزل : ٢٢٥١٣٩

☎ Dir. 223819
Dle. 225139

توجه جميع المراسلات الى العنوان التالي :

مجلة الاديب ـ صندوق البريد رقم ٨٧٨ـ١١
بيروت ـ لبنان

●

صاحب المجلة ورئيس تحريرها ومديرها المسؤول
البير اديب

عليه الحياة ، وحرمته نعمة السعادة . عملت اجيرة ، اكل الرزق عينيها، ثم فقدت زوجها وابنها حسين ، وتحملت اهانات الاغنياء الذين كانت تعمل عندهم ، ومع ذلك بقيت شريفة ابية صابرة ، لا تلين لها قناة وحكمتها :

ما في شده دامت
يا الله ... كلو بيمضى ...

كما يستعمل بعض الكلمات الجارحة القاسية ليعبر بها عن صمت الدنيا وصممها عن آهات الفقراء والتعساء فيقول :

العيشه صعبه
وها الدنيا الكلبه
طرشي ، ما بتسمع آهات الفقرا...

لاحظ كيف يصور ام حسين الصابرة على الفقر والجوع والعري ولعنات السادة :

يا وجه محفر ومطامن
يا حزن بلادي العم تنطر
تا الغيمه تمطر
يا حلم ببكرا
وعم يهرب بكرا
وبتدقي صدرك من قهرك
يا ليل الفقرا الملعون القاسي
ما لك بكرا ...

لقد عرف الشاعر كيف يمزج الحب بالسياسة ، والغزل بالنضال، والياس بالامل ، فالكلمة عنده ما وجدت الا لكي تخدم قضية ، وتوظف للتعبير عن هموم الانسان وتطلعاته وشوقه الى عالم افضل ... وهي بالاجمال لطيفة منتقاة بدقة وذوق ومهارة ، تحرق احيانـــا كالجمر ، وتتوهج احيانا كالمشاعل لتضيء ما حولها ، وتبشر بالفجر الذي سيهتك استار الظلام .

وبعد فكثيرا ما تساءل الكتاب والنقاد بخاصة : لماذا يختار ميخائيل عيد لغة الحياة اليومية ليعبر بها ، وهو الذي يمتلك ناصية الفصحى ... فيجيبهم : العامية اطوع وأمرن ، والصق بالجماهير البسيطة التي حرمت من نعمة العلم ، يستطيع بها ان يعبر بصدق وعفوية اكثر ، لكن علتها انها تظل محلية ، لا تخرج الى ابعد من حدود دائرتها ، وليس لها القدرة على سعة الانتشار ، لان لكل قطر عربي عاميته الخاصة .

دمشق — عيسى فتوح

* * *

السفر في الاتجاه المعاكس

شعر ـ اسماعيل عامود ـ ٨٤ صفحة ـ مطابع الفردوس بدمشق ـ نشر بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب ومجلة « الثقافة » في دمشق

اسماعيل عامود من الشعراء الذين صار الشعر بالنسبة اليهم هاجسا حضاريا ، وزادا وزوادة خلال مرحلة زمنية طويلة ، انه من زمن بعيد يتعامل مع الكلمات ، تعامل الامطار مع الارض العطشى ! انه الرومانسي التائه على ضفاف الوطن ، يستظل تحت حنانه ، يستحم بشمسه ، يتعشق الحرية ، الخبز ، يتطلع دائما الى بلدته التي ما خلت قصيدة منها في دواوينه ، الا وذكرها ! عنوانا ، او طفلة شاردة بين منعطفات حروفه اللاثبة ، صوب العناق والوصال ؟!

فالعامود في ديوانه ـ السفر في الاتجاه المعاكس ـ هو السابـــع بعد اطفال الستة ١ ـ من اغاني الرحيل ٢ ـ كآبة ٣ ـ التسكع والمطر ٤ ـ اغنيات للارصفة البالية ٥ ـ اشعار من اجل الصيف ٦ ـ الكتابـة في دفتر دمشق ـ والاخير طبع بالتعاون مع اتحاد الكتاب العرب في سورية

يقول الشاعر العامود في ديوانه :

« آه .. يا وطن الحب المغروس في قلبي
كشجرة سرو ... متعبة !!
في السر المكبوح اغني لك قصائد السفر والتغرب
وبينما انامل تكتب عنك اطروحة القهر والنضال .. الخ »

فبالكلمات البسيطة الهادئة ، البعيدة عن الرمز والاسطـــورة ، يسافر العامود بزورقه ، مجذفا بالحب ، وراحلا عبر المضائق الحنينية، يرتفق خريطة الوطن ، يعلقه تميمة في حنايا قلبـه المفجوع ، تقيـــه سياط التشرد والغربة !..

« ايه ايتها المسافرة بلا اتجاه ؟!
حقائبي ، لم يعد فيها سوى الاوراق المبعثرة
وقبضة من شعر حزين يلفظ انفاسه ..» ص ٨

يبقى متأرجحا بين (الاه) وال (ايه) .. وال (اواه) ـ آلام وتنهدات ، تغيب في مسامات اشعاره ، تلك الفجرية التي رقصت فوق صدره ، زارعة لهفة الاشتياق ، انها الاشعار المهمومـــة ، والاوراق المتناثرة بين الزواريب المنسية .

فقصائده مشحونة بالغضب ، والقهر ، والترحال ، انه يبحث عن الخلاص ، واي خلاص هذا وعناوين اشعاره هي ـ فوق رصيـــف معاكس ـ العبور في طقس الحبيبة الوطن ـ أسافر في فجر الرماد ـ اغاني الحصاد ـ انفعالات شاعر معاكس ـ شعراء الطقوس المتقلبة ـ الخ فمن قصيدة بعنوان ـ اغاني الحصاد :

« كم هو .. رائع وسامق ، هذا القوام يا حبيبتي
يوم افترقنا ـ نشجت الحقول بدموع القحط
ومواسم الجدب ..
بينما هرب المهربون اكياسهم عبر مكاتب الحبوب .. »

فاسماعيل من الشعراء الذين احبوا .. من قريب او بعيـــد ـ السياب ـ الملائكة ـ انه من جيل ما بعد السياب ، اي انه صلة الوصل ما بين الرواد ـ والجيل الحالي ..؟ انه من جيل ما قبـــل الخمسينات ـ اذا صدق ظني ؟! او جميل ان يتأثر الشاعر بغيره ، لكن شرط التفرد بلونه الشعري الخاص ، فالعامود الشاعر انفـــرد بذلك ، له نكهته الخاصة ، رغم كل هذا الركام الشعري ـ المطروح ـ في الساحة الادبية ، فقد اتخذ من التراث الشعبي مزاميره ، فهذا مزمور يقول :

« من هون لارض الدير
من هون لارض الدير
والسر اللي بيننا
ايش وصلو .. للغير .. »
ـ كل قطعة .. فيك يا حبيبتي المجهولة الرغبات :
تثير حنيني .. فاشتعل ..

هذه الحبيبة التي تترصد الشاعر في كل جهاته انهـا ـ بلدتـه (السلمية) ـ المنسية على تخوم البادية ، المتواجدة في خلاياه ، يتوجه اليها بأشعاره ، يتذكر طفولته ، وبعض شبابه ، اصحابه ، جارتـه ، رغيف الخبز الساخن ، اللبن الرائب اللذيذ ، المطر ، السمسم، النهر العريض :

« يا وطني والحب تجذر في قلبي منذ ان عرفتك
يا سفري المرح في دروب الشتاء !!»

انه في احتجاج دائم التواصل ، قلق مستمر ، وارتهان غريب ، ما بين السفر والتوقف ، بين المحطات والدروب المسيجة بالزيزفون ، يتذكر كل شيء ، رغم تواجده الدائم في دمشق ـ حيث يقيم الشاعر واسرته ـ يقول في قصيدة بعنوان ـ المغادرة في الطقس المعاكس ـ :

« يا لها من ايام تقف في الحلوق كشوك الصبار

وبلدتي تتغذى من طحين الذرة والجلبان
بلا احتجاج
ولما غادرتها كان الجراد يحتل الحقول ..»
متصوف احيانا ، الى حد انه يذوب شوقا وحنانا ، كلما تذكر رفة السنابل ، والحقول الطافحة بالخير والسعادة ، لكنه كالشعراء الرومانسيين ، يخاف من المجهول ، من الاقدار ، من غدر الطبيعة ، متشائم احيانا ، لا ادري لماذا ؟! مع انه مرح ـ وصاحب نكتة ـ ولكن ربما يخفي وراء هذا المرح قلبا تشقق غربة ، وانفعالا انه يقول بجة موجعة :
« آه ، يا سفري المعاكس دون أوبة ابدا .. »

سلمية ـ سوريه — خضر عكاري

* * *

أقنعة من زجاج

تاليف نادر السباعي ـ الطبعة الاولى ١٩٨٠ ـ ١٠٠ صفحة ـ المطبعة العربية بحلب

لم أعد اذكر من قال : ان الفن دائم التجدد وهو في تجدده لاينسى ـ بالخبرة او السليقة ـ أركانه اللازمة لارتكازه .

والذي اذكره وقد فرغت من مطالعة (اقنعة من زجـاج) وهي المجموعة القصصية الاولى للقاص نادر السباعي التي صدرت في حلب مؤخرا بطباعة انيقة والتي تشتمل على ثماني قصص قصيرة هو مدى التوفيق الحاصل بين التجدد من جهة والحفـاظ على اركان القصة من جهة اخرى عبر هذه القصص .

وهذا النجاح هو بمثابة الضوء الاحمر امام عربة التجريـب السريعة ، الجامحة ، الصاخبة التي تجاوزت المحطات الفنية ، وخرجت على قضبان الحديد للطرق بدون هوادة ..

ان المشهد القصصي وبخاصة ما يسمى بادب السبعينات أفرز أعمالا غريبة ، مشوهة ، باسم التحديث والتجريب وظن المتجنون من الشباب ان الفن المتجدد هو تحطيم لكل قاعدة ثمة قاعدة .

وان ما يميز قصص السباعي انها تنطلق من فهم للقاعـدة الى التجدد : ففيها الحدث المتنامي والمتازم ، والشخوص الواقعيون من لحم ودم ، والخيال الموظف ، واللحظة الزمنية المكثفة الواعيـة ، والوضوح في الرؤية والرؤيا ، كل ذلك عبر جمل مرتبة ترتيبا نفسيا، وصور موسوقة آسرة واقعية ومجنحة بالشعر .

واشيد هنا بنجاح المعادلة ما بين الواقع والخيال وما بين العاطفة والعقل ، ما بين الايحاء والتفسير وما بين الوعي واللاوعي في ترجمة حالات الخيبة والحزن ، والحب ، والشوق ، والايمان وفي نقـل تموجات النفس الانسانية وصراعها امام مفارقات الحياة ، ومتناقضاتها.

ها هو احد ابطال قصصه يصرخ من تحت الانقاض :

« اشعر انني أغير عصري .. ابدع نجما جديدا ، يـدو في فلـك الخير والوفاء » .

والشخص ذاته الذي هو من لحم ودم ، ومن روح متوثبة يصرخ صرخة اخرى :

« عندما تصبح مساحة القبح في اخلاق البشر اكبر من مساحـة الورق .. ماذا افعل ؟ »

ثنائية الخيبة والامل هي الخيط المنظور واللامنظور الذي ينتظم قصص المجموعة من اولها الى آخرها مثلا في (اقنعة من زجاج) يتخلى الاصدقاء عن صديقهم وقت الشدة ويقبعون وراء زجاج المقهى فيركن الى الهوة يفضي لها احزانه وخيبته ، وفي قصة (زمن بلا رحمة) تكتشف فتاة متحررة خطاها متاخرة وتجتر مرارة الخيبة ، وفي (اعذريني يا بنتي) تتكرر تجربة تخلي الاصدقاء عن صديقهم وانشغالهم بالمال وتكديسه .

وفي (ذات الوجه الاخر) معاناة فتاة احساس الخيبة بعد ان تخلى عنها الحبيب المخادع ونبذها نبذ نواة .

وفي (الحلم الضائع) تخلي صديق يخدم اميرا في جنيـف عن صديقه فيخيب أمله وفي (واخيرا توارى القمر) معاناة انسان الشعور بالذنب (وهو ذروة الخيبة) بسبب انتحار فتاة احبته من طرفها .

حتى في قصة (الورقة المفقودة) وهي شريحة من الواقع المعاش اليومي وتجربتها تختلف عن سواها فهي تجربة عامة فتدور في فلـك الخيبة ، فبطلها يعاني الخيبة وهو يسعى باحثا عن عمل ويعاني نفس الشعور تجاه امه وحبيبته ، وامام الصور القاسية المزدحمة في احد حافلات النقل في مدينته الكبيرة .

وابطال السباعي في (أقنعة من زجاج) بقدر صدقهم في معانـاة الخيبة من خلال تجارب العلاقة والحب والمعاملة اليومية ، فهم يعانـون صحوة الحياة الجديدة والاحساس بالفجيعة ارهاص ببدء درب جديد، انهم يمارسون الحب والبراءة والايمان ولا يسالون القطاف ها هو البطل في (اعذريني يا بنتي) يخاطب ابنته :

(غدا .. عندما تكبرين سوف تفهمين كلماتي . انها سوف تظـل مكتوبة في قلوب الناس ، وتلتصق بالاحساسات) .

وان كان من قول يقال في نهاية هذه العجالة فهو :

دعوة الصديق القاص نادر السباعي الى احتضان آفاق التجـارب الانسانية للتملص من ضيق التجربة النمطية المتكررة وهي سمة برزت براسها من اغلب قصص المجموعة ، والسباعي يمتلك ما يؤهله لخوض هذه المرحلة الحلوة ـ المرة ، فياتي لنا بالجديد ، ويبهرنا بما لا يتوقع من الواقع الحي النابض ، من خلال تقنية تجدد ـ بالخبرة او السليقة ـ وتستفيد من المعطيات الفنية الحديثة والمبتدعة بدون ان تنسى اركان الفن القصصي اللازمة لارتكازه ووصوله للمتلقي على جناح النجاح .

حلب — مصطفى النجار

* * *

ظهر حديثاً

● احاديث عن الادب المغربي الحديث ـ تاليف عبد الله كنـون ـ تعريف الدكتور اسحق موسى الحسيني ـ ٢٠٦ صفحات ـ حجم كبير ـ منشورات دار الثقافة في الدار البيضاء بالمغرب ـ مطبعة النجاح الجديدة في الدار البيضاء بالمغرب .

● هكذا عرفتهم ـ تاليف جعفر الخليلي ـ الجزء الخامس ـ ٢٦٤ صفحة ـ حجم كبير ـ مطبعة دار الكتب في بيروت لبنان .

● الحركة الشعرية في الضفة الشرقية من المملكة الاردنية الهاشمية ـ تاليف الدكتور عيسى الناعوري ـ ٢١٠ صفحات ـ حجم كبير ـ منشورات وزارة الثقافة والشباب ـ مطابع دار الشعب (؟) ـ (صدر في عمان بالاردن) .

● من اعلام الفكر العربي ـ تاليف سلمان هادي الطعمـة ـ ١١٦ صفحة ـ حجم كبير ـ منشورات مكتبة الانجلو المصرية بالقاهرة ـ المطبعة الفنية الحديثة بالزيتون مصر .

● قصائد للوطن ـ صفاء الحيدري ـ ١٣٢ صفحة ـ مؤسسة ايف للطباعة والتصوير في بيروت لبنان .

● القناديل المعلقة ـ شعر ـ مي بدوي ـ تعريف الدكتور باقـر سماكة ـ الغلاف تصميم الدرهي محمد واللوحات للشاعرة ـ ١٥٦ صفحة ـ شركة الطبع والنشر في الدار البيضاء بالمغرب .